

روايات عبير



مارغريت بارغيتر

الوَعْد المكسُور

٩٥

روايات عبير

الوعد المكسور

سارة مكسورة القلب بعد فقدانها والديها، وحيدة تصل الى جزيرة «مل» في اسكتلندا للعمل سكرتيرة عند هيو فريزر. لكنه يطلب منها، اضافة الى مهماتها، الاعتناء باخته الشابة جيل، وهي الواقعة في هوى رسام لا يحبه هيو ولا يوافق على علاقته باخته . . . مع انه لا يعرفه رافضاً مقابلته في الأساس.

شيئاً فشيئاً ترتسم على شاشة الحب علامات اخرى، اذ تجد سارة انها مبلبلة الفكر بين واجبها وقلبها، فهي لا تستطيع القيام بدور الجاسوسة والوقوف في وجه اثنين يحبان بعضهما . . . ومن جهة اخرى بدأ قلبها يخفق بشدة امام هيو. اخيراً، خلال الحفلة السنوية تكتشف سارة ان هيو صديقة جميلة وثرية ولا يعود بامكانها احتمال شيء . . . تهرب، البحر امامها وهيو وراءها، وقلبها مبلبل اكثر من اي وقت مضى!

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
WINDS FROM THE SEA

المراسلات
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١- لقاء غير مريح

بعد أن اجتاز المركب صخرة ليدي مارا على بعد قليل من أسوار قلعة ديوارت ألقى مراسيه قرب رصيف مرفأ كريغنيور.

وتنهدت سارة بارتياح بعد ان وصلت اخيراً، وراحت عيناها تبحثان في تشوق متفحصتين الحشد الصغير من الناس فوق الرصيف. لقد ذكر لها جيمس بان هيو فريزر سيكون هنا في انتظارها، ولكنها لم تتبين أيّ شخص يناسب الوصف الذي اعطاه لها قائلاً بانه رجل في حوالي الثلاثين من عمره، طويل واسود الشعر. وداخل سارة الامل بألاّ يكون هيو فريزر الذي قرر استخدامها بعجلة بدون ان يراها قد نسي فجأة كل ما يتعلق بها.

واستدارت نحو امتعتها لتجمعها، وتقطيبة خفيفة تعلو جبهتها الملساء.

ثم سارت بتثاقل فوق المعبر الخشبي الذي يصل المركب بالرصيف.

واسترجعت في ذهنها استمتاعها برحلتها في المركب على الرغم من اضطراب الامواج، الاّ انها احست بان زمناً طويلاً قد انقضى منذ ان غادرت لندن من محطة يوستن البارحة. وعندما ودعتها صديقتها جين، السيدة التي كانت تقيم سارة في منزلها في لندن، على رصيف المحطة قالت لها بمرح:

«ستكون رحلتك ممتعة بدون شك يا عزيزتي».

وذلك بعد ان ساعدتها في العثور على مقصورة فارغة في القطار، واغرقتها بسيل من المجلات.

وسافرت سارة ليلاً الى غلاسكو في اسكوتلندا، ثم غادرت قطارها الى القطار المتوجه الى اوبان ومن هناك استقلت المركب. وقد تمتعت برحلة

جيدة مع انها كانت مرهقة قليلاً. وبينما راحت تتساءل بصبر نافد عن طول المدة التي عليها ان تنتظرها، اعتراها شعور بأنّ غاية ما تصبو اليه الآن الوصول الى نهاية مطافها.

ابتعدت سارة عن المركب بضع خطوات ثم القت بحقائبها كيفما كان بجانبها، وراحت تحدّق بفضول عبر المرفأ الى كريغنيور التي بدت لها بلدة صغيرة لا تحتوي الاّ على بعض البيوت المتناثرة وعدّة فنادق متراصة على حافة المياه حول الخليج. وفي الخلفية لاحت لها سلسلة من الجبال الوعرة. ولاحظت بأن بعض السيارات التي كانت على ظهر المركب قد غادرته شارعة في رحلتها عبر الطريق الضيق المتجه الى توبرمري، أما فيما عدا ذلك فلم يكن هنالك من مظاهر الحياة الا القليل: صبي صغير وجهه منير يكسوه النمش، يحاول اصطياد السمك ومجموعة من طيور النورس تحلق بأمل قربه.

وراحت سارة ترقب المنظر باهتمام مستغرق لم تقطعه الاّ هبة ريح عصفت فجأة باحدى حقائبها الصغيرة وأخذت تلعب بها. وقفزت سارة فزعة الى الامام، ولكن قبل ان تستطيع الوصول الى حقيبتها سارع شخص وسبقها اليها مسترجعاً اياها، وعرفته سارة على الفور، وتبينت فيه الشخص الذي لاحظته على المركب لأنه كان يصفر لحناً معروفاً من اوبرا ريغوليتو. وكان شاباً نحيلاً ذا لحية، يرتدي بنطلوناً ضيقاً من المخمل الاسود وبلوزة سوداء. وطاف بذهنها انّ ملابسه تليق بصالة قهوة في حي تشلسي الراقي في لندن لا بجزيرة سكوتلندية. وابتسم الشاب بمرح وهو يعيد لها حقيبتها.

وردّت سارة ابتسامته بسرعة وقالت له بحرارة:

«لقد سارعت في اللحظة المناسبة، ولو انك تأخرت لحظة واحدة لانتهت حقيبتي في البحر».

«وأنا لا أعرف السباحة».

قالها بلهجة مازحة وهو يزيح جانباً بضحكته كلماتها اللاهثة الشاكرة. وضاقت حدقتاه وهما تستقران على وجهها المضرج.

«هل تحبين ان اوصلك بسيارتي الى اي مكان؟ او لم تقرري بعد اين تريدين ان تذهبي؟».

وشعرت سارة بالاضطراب وهي تزيح بصرها جانباً محاولة ان تتغلّب على شعور باهت بعدم الارتياح. وتمتمت:

«قد لا يكون اتجاهنا واحداً».

وتمنت لو انها ارتدت للسفر ثياباً اكثر وقاراً من بنطلونها الجينز القديم، فلقد بدا واضحاً أنّ هذا الرجل ظنّها فتاة تهيم هنا وهناك بحثاً عن الصحبة. وسارعت الى القول غير عابئة بنظراته الجريئة:

«في الحقيقة انني في طريقي الى لوخ غويل من اجل العمل عند هيو فريزر. وقد اتفقنا على ان انتظره هنا. ولهذا فأنا لست بحاجة الى عرضك، ومع ذلك شكراً».

«هيو فريزر».

ولوهلة بدا لها وكأنه جفل عند ذكر ذلك الاسم. ولكن هذا الانطباع سرعان ما تلاشى حتى انها شكت في حقيقته. وقال هازاً كتفيه بعدم مبالاة:

«حسناً من المحتمل ان التقي بك يوماً ما».

ورفع يده بحركة عابرة ثم دار على عقبيه، وقفز بخفة الى مقعد سيارة قديمة مهملة وساقها مبتعداً، وسارة ترقب المشهد بصمت.

واستدارت وهي تتنهد، ثم جلست على صندوق مقلوب لتخزين السمك، واستعدت للانتظار. وعبّت الهواء الذي كان يفوح برائحة السمك والملح واعشاب البحر بعمق، واحست بحدته المنعشة. انها لم تقابل هيو فريزر بعد. لم تكن تعرف اي شيء عن منظره الاّ بضع كلمات تفوّه بها جيمس. وبدا لها من الصعب التصديق ان تكون جالسة هنا بعيداً عن بيتها تستعد لابتداء وظيفة جديدة على جزيرة تكاد لا تعرف عنها شيئاً. ففي السابق لم تكن هذه الجزيرة الاّ اسماً على الخريطة، ولو لم يقع حادث الطائرة الذي تسبب في مقتل والديها لكان من المحتمل الاّ تبقى الاّ مجرد اسم.

في الحقيقة ان جين هي التي ساعدتها على العثور على هذه الوظيفة. وجين مارلي هي صديقة قديمة للاسرة عرفتها سارة منذ طفولتها. وبعد وقوع الحادث ذهبت سارة لتعيش معها، اذ كان من الضروري ان ينتقل طبيب آخر الى البيت والعيادة حيث كان والدها يعمل، وحيث كانت سارة تساعده مستقبلة مرضاه. وفي اي حال ما كانت سارة ترغب في الاستمرار

بالعيش في البيت بعد ان رحل والداها.

وكانت جين تعمل سكرتيرة لأحد مؤسسي مكتب معروف للمحاماة في الوست اند في لندن وهي التي اقترحت أن تحاول سارة الابتعاد عن لندن لمدة وذلك اثناء مكالمة هاتفية الى سارة من مكتبها.

«اعتقد انك بحاجة الى الابتعاد يا حبيبتي». قالت لسارة برقة. «ورغم اني اكره ان نفترق الاّ اني اعتقد انك بحاجة الى التغيير. لم استطع ان افعل شيئاً بهذا الشأن في الماضي، ولكن يبدو الآن انّ صلواتي قد استجيبت متجسمة في طلب من شخص يدعى هيو فريزر يسكن في احدى جزر اسكوتلندا».

ثم تابعت تسرد بقية قصتها على سارة التي اصغت اليها بحيرة.

«انا لا اعرف فريزر شخصياً يا سارة، ولكن جيمس يعرفه، وقد ورث فريزر بعض الاملاك والاراضي في جزيرة «مل» وهو بحاجة الى سكرتيرة لمدة شهر تقريباً تساعده على ترتيب اموره، وتكون على استعداد لمصاحبة وتسلية اخته الصغرى- اخته غير الشقيقة على ما اعتقد. وهو بالطبع يستطيع ان يستعين باحدى العاملات في مكتبه فهو يمثل بيت فريزر في شركة فريزر وهاردينغ للاستيراد. وانت لا شك قد سمعت بها. ولكن يبدو انه يفضل استخدام فتاة لا تعمل في مكتبه، وهذا ما دفعه الى الاتصال بجيمس هاتفياً».

وقاطعتها سارة قائلة وهي تتمسك بسماعة الهاتف في محاولة منها لتستوعب كلمات جين:

«ولكن لماذا اخترتني انا؟».

فاجابت جين بقلق:

«لانك بحاجة الى التغيير يا عزيزتي، وعندما سألني جيمس فيما لو كنت اعرف شخصاً مناسباً فكرت بك في الحال. اننا كلتينا نعرف كم كانت هذه الاسابيع الاخيرة مؤلمة بالنسبة اليك. وعمل كهذا هو افضل في اعتقادي من اجازة في الوقت الحاضر. فهو سيشغلك ذهنياً وجسدياً ويساعد على تحويل فكرك عن الحادث. على كل، فكّري في هذا الاقتراح وسنناقشه هذه الامسية. واذا نال رضاك فان جيمس سيقابلك بشأنه غداً صباحاً».

ولكن سارة، مهملة نصيحة جين لم تعر الموضوع تفكيراً عميقاً، فعلى

الرغم من مضي شهر على حادث تحطم طائرة والديها فان ذهنها كان ما يزال يعاني من حالة من الخدر دفعتها الى القبول بدلاً من التفكير. وبما ان جين ترى بأنّ هذا الرجل، فريزر، انسان معقول وانّ التغيير سيفيدها فانه لا مانع لديها من التعاون. وفي اليوم التالي ذهبت سارة مع جين لمقابلة جيمس كار ووجدته رجلاً لطيفاً يقارب الخمسين. وكانت تعرف بانه يحب جين وان هذا الحب استمر عدة سنوات. ولكن يا لسوء الحظ كانت جين التي انتهى زواجها بالطلاق، تاركاً ذكرى مريرة في نفسها، على غير استعداد لتجرب الزواج ثانية. الاّ انها كانت تخرج معه بين الحين والآخر، وقد عرّفته منذ زمن طويل على والدي سارة اللذين كانا يكنان له مودة كبيرة.

واستقبل جيمس سارة بابتسامة، واشار اليها بلطف بالجلوس، ثم دقّ الجرس طالباً بعض القهوة. وبعدها انتقل للحديث عن متطلبات الوظيفة المقترحة. وبدا قانعاً بمؤهلاتها وبقدرتها على ارضاء موكله جيداً.

«انا اعرف بأنّ سيدة مسنة بعض الشيء، كانت تعمل عند العم هيو. وهي طباخة ومدبرة منزل ماهرة. ان جيل، في اعتقادي، قد تكون متعبة الى حد ما، ولكن هذا لا يعني بانني اشك في قدرتك على تسيير الامور جيداً».

قال هذا وعيناه تبتسمان لها من فوق نظارته ذات الاطار الذهبي.

وفكرت سارة وهي تتململ بقلق فوق صندوق الخشب الذي كانت تجلس عليه: ان جيل هي اخت هيو فريزر غير الشقيقة. وهي السبب كما شرح لها جيمس في عدم رغبة السيد فريزر في استخدام فتاة صغيرة السن، او سيدة نموذجية في منتصف العمر. وخطر لسارة أن فريزر نفسه يبدو شخصاً نموذجياً. واملت وهي تلوي شفتيها الرقيقتين بان يجوز عمرها ٢١ عاماً، على رضى فريزر. وفي كل حال فانه لا يبدو ان اخته اليافعة ستشكل مشكلة كبيرة. ومن المحتمل ان ما ينشده اخوها هو بعض المساعدة من فتاة عاقلة وخفيفة الحركة تستطيع ان تعاون جيل على ملء وقتها في جزيرة منعزلة كهذه.

وعبست سارة وهي ترفع ناظريها عن ساعة يدها لتحدق في شمس الاصيل، ولكن صوت محرك سيارة جعلها تتحوّل بعينيها الى رصيف البحر. وحادت السيارة التي كانت من نوع لاند روفر عن الطريق

وسارعت الى حيث رسى المركب. ثم توقفت فجاة بضغطة قوية على الفرامل، وقفز منها رجل طويل راح يحدّج جموع الناس بنظرات وجيزة وسريعة. وكان حسن الهندام رغم أنّ ثيابه كانت عبارة عن بنطلون من المخمل المضلع وكنزة بيضاء ذات قبة عالية. وبدت ثيابه مناسبة لجسده القوي المتين العضلات. وأوحى لها وجهه المتدفق حيوية انه رجل يقضي معظم اوقاته في الهواء الطلق يتعرض للريح والعواصف، وانه يميل الى العيش في خطر.

واستقرت نظراته عليها الآن تتفحصها بموضوعية محاولة تقييمها. وشملتها عيناه الرماديتان الفاترتان بنظراتها من تحت حاجبيه الداكنين الثخينين. ولاحظت سارة صرامة قوس الصدغين والفك وانسياب شعره الداكن، مدركة بأنّ شدته وصرامته تحول دون نعته بالرجل الوسيم. وانتهت سارة الى أنّ خلاصة ما يمكن وصفه به هو انه رجل متين البنيان ومثير للاهتمام. وابتسمت له بآلية لان عينيه استقرتا عليها اخيراً.

وضاقت حدقتاه. وتغيّر التعبير الذي كان يكسو وجهه. وارتفع حاجباه الثقيلان قليلاً. ثم انختلج فمه الصارم بابتسامة جعلت الدم يتدفق في خدي سارة. اذ انها كانت ابتسامة متعالية هازئة قليلاً، باعثة على الاضطراب.

وسار حتى وقف بجانبها مهيمناً بقامته المديدة. وسألها بحدة:

«هل انت سارة دينتون، سكرتيرتي الجديدة؟».

وعندما هزّت سارة رأسها بالايجاب مرتبكة مضطربة اضاف بكياسة:

«اسمي هيو فريزر، وأنا من لوخ غويل».

وسارعت سارة للوقوف على قدميها اذ انها شعرت بفقدان التكافؤ وهو يطل عليها من فوق. وقالت وهي تحاول ان تلملم كل ما استطاعته من وقار:

«لقد غادرت القارب منذ لحظات فقط».

«اذن دعينا نذهب».

ومن دون ان يعيرها مزيداً من الاهتمام حمل حقائبها بخفة ووضعها في مؤخرة السيارة. وبحركة عابرة من يده اشار اليها بان تجلس في مقعد السيارة المجاور له.

وفكرت سارة مجفلة: لا فائدة من أن أتوقع منه ان يفتح لي باب السيارة. على كل هو رئيسي وأنا مرؤوسته. ولمحت سارة في عينيه بريق استمتاع بالموقف وهو واقف بانتظارها ويضع يديه في جيبه. وفجأة ادركت انه يستطيع قراءة افكارها مما بعث الغيظ في نفسها. وانتقل تفكيرها الى السيارة ووجدت انها تعرف أنّ اللاند روفر هي افضل سيارة من نوعها للانتقال في مناطق الهايلاند ولكن الم يكن بالامكان ترتيبها قليلاً؟ وأمعنت النظر بامتعاض في مجموعة الاشياء المبعثرة في ارض السيارة، كل ما يخطر على البال: من المعاول حتى المواسير. أما حقائبها فقد تربعت بكبرياء فوق حزمة من القش. وخلعت سارة متعبة معطف المطر الذي كانت ترتديه وجلست بحذر شديد على حافة المقعد.

«كما ترين؛ انها ليست سيارة وثيرة».

واهتز المقعد عندما استقر في السيارة بجانبها قائلا:

«ارمي هذه الاوراق القديمة وراءك واحترسي من صفيحة البنزين تلك. هل استمتعت برحلتك؟».

«نعم...».

ورأت سارة ان سؤاله المتأخر ما كان الاّ سؤالاً املته اللياقة، اذ ان صوته لم يعبر عن اي شعور بالاهتمام.

وحاد بالسيارة باحتراس عن الرصيف سائقاً بسلاسة ومهارة معتادة، مخلفاً وراءه كريغنيور، سالكاً الطريق باتجاه سالن في الشمال.

وثارت الدهشة في نفس سارة ووجدت نفسها تقول قبل ان تستطيع ايقاف كلماتها:

«ولكنك قدمت من ناحية الجنوب».

«هذا صحيح». اجاب بتكاسل وبايماءة طفيفة من حاجبيه الداكنين. «لقد ذهبت لأقابل شخصاً لشراء كلب».

واحمر وجه سارة وندمت على كلماتها، فالامر، كما اوحى جوابه لا يخصها.

وقال مبتسماً وهو يرمق وجهها المكتئب بنظرة سريعة لاح فيها وميض من التسلية:

«انني ابحث عن فصيلة خاصة، واجد من الصعب العثور عليها. هذا

الطريق سيقودنا الى مشارف سالن ومن هناك سنحيد الى اليسار ونسلك الطريق باتجاه لوخ غويل. وسالن هي قرية صغيرة تقع على الساحل ولا تبعد الاّ عدة اميال من هنا. وقد اسّسها رجل كان يتقلّد منصب حاكم جنوب ويلز الجديدة، ويحمل اسم لاخان ابن كويري».

واجابت سارة:

«انا ارى...».

ولم تكن متأكدة انها فعلا ترى. وعلقت:

«لا شك ان لاخان ابن كويري كان رجلاً ذا شأن».

«هل سبق لك ان كنت هنا؟».

سألها بصوت تخالجه الحدة.

«لا».

وشعرت سارة بأن ذهنها قادر فقط على صياغة الاجابات الوحيدة المقاطع.

«لو حاولت الجلوس جيداً في مقعدك لاستطعت الاسترخاء وخف توتر اعصابك».

وخفف من سرعة السيارة بصبر لكي يتيح لبعض الخراف عبور الطريق الجديد. ولاح البحر على بعد عدة ياردات فقط، لا يفصله عن البر سوى شاطىء ضيق تكسوه الحصى وتتكسر عليه الامواج برقة. واستجابت سارة مرة ثانية لتعليماته، واحست، لدهشتها بتحسن. وتناهت اليها كلماته:

«إننا نتعلّم كيف نأخذ الامور ببساطة في هذه المنطقة من العالم. الاّ انني يجب ان اعترف بأن اتقان هذا يستغرق بعض الوقت».

وعاد لمتابعة الطريق بعد ان مرت الخراف، بينما راحت سارة تراقب القطيع يبتعد، وبللت شفتيها قبل ان تتمتم برصانة:

«انه لمن الواضح ان السيد لاخان ابن كويري لم يتبع هذه النصيحة».

فحدجها بنظرة طويلة، وقال وفي عينيه بريق:

«انك تخلطين الامور يا آنسة وينتون فالاسترخاء لا علاقة له البتة بالكسل».

فادارت سارة رأسها المتألق باتجاهه، وراحت تتفحص وجهه عابسة متحيرة، وقد داخلها الشعور بأنه اذكى من ان تكون نداً له.

وادار هو رأسه بدوره بعد ان احس بنظراتها المتفحصة الطويلة.

«من كنت تتوقعين ان تقابلي؟» وتابع مبتسماً: «رجل جبلي اشعث يرتدي الكلت (تنورة يرتديها الرجال في سكوتلندا) والسيف السكوتلندي ليكمل لك الصورة؟».

تدفق الدم في وجنتي سارة اذ قابلت عيناها عينيه الساخرتين.

«انني لم افكر في هذا مطلقاً».

اجابته ذاكرة نصف الحقيقة فقط. وتركت عيناه عينيها لترمقا ارجوان وجهها الجميل.

«هل اتعدى الحدود فيما لو سألتك ماذا تفعل فتاة مثلك هنا؟».

ولم تفهم سارة فحوى كلماته بالضبط، اذ لاحت لها في عينيه نظرة متأملة، فقالت موضحة:

«ولكنك ابديت رغبتك في استخدام سكرتيرة».

ولامست عيناه جانب وجهها وكمال خطوطه.

«ما كنت لأظن بأن فتاة لها جمالك ستبدي الرغبة في ان تجد عملاً في جزيرة كهذه، حتى ولو لبضعة اسابيع».

فاستدارت سارة نحوه مستاءة وحدّقت فيه بتحد. ماذا يحاول ان يقول؟

«لعلك تظن بأنني اصغر مما يجب».

وشعرت بنبضاتها تتسارع في خوف. لا يمكن ان يعني بأنها غير مناسبة ليس بعد ان قطعت هذه المسافة الطويلة:

«لقد اسأت فهم مقصدي».

وتركت نظراته وجهها لتعاود التركيز على الطريق.

«لقد طلبت من جيمس كار بشكل خاص ان يبحث لي عن فتاة شابة انك تبدين صغيرة بلا شك لأنني اكبر منك».

وتذكرت سارة بأن جيمس ذكر لها بأن فريزر يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً. اذن هو ليس بالرجل المعمر وسارعت تقول:

«انني اؤكد لك بأن منظري لن يؤثر بأية طريقة على عملي مطلقاً».

واحست بكلماتها تطفو في الهواء جامدة، متزمتة، مما جعل خديها يشتعلان خجلاً للمرة الثانية.

«توحي كلماتك بالامتعاض».

وتناول علبة السكائر من جيبه وقدم لها واحدة. ولما هزت رأسها بخمول رافضة، تناول هو واحدة واشعلها، ثم القى بعود الكبريت المحترق خارج النافذة.

«ربما كان يجب ان تصر على اختيار فتاة خالية من الجمال عندما اتصلت بالسيد كار».

قالت وهي ترنو بتعاسة الى سحب الدخان التي خلفتها سيكارته خارج النافذة.

وأخذ الطريق يضيق ومن دون انذار اندفع هيو فريزر بسيارته نحو طريق جانبي وتوقف.

ونظر اليها مرة اخرى بتمهل عابث من تحت حاجبين تقوسا في حركة طفيفة اثارت الغيظ في نفس سارة الآن، كما اثارته قبلاً. وقال مجيباً على ملاحظتها الاخيرة:

«انا شخصياً لا اعتراض لدي على استخدام سكرتيرة جميلة». وابتسم مضيفاً: «ولو ان توقفي هنا قد اثار في نفسك بعض التساؤلات فان السبب هو انني اريد ان اناقشك في بعض الامور قبل ان نلتقي بالاخرين».

وراح يتأمل نهاية سيكارته المشتعلة بامعان مثير للجنون. وانتظرت سارة متململة محرجة، وازاحت شعرها الطويل الاشقر الى الوراء بأصابعها النحيلة بعصبية. ان هذا الرجل يثير نفورها وفضولها معاً، ويدفعها الى الحيطة على الرغم من انهما لم يلتقيا الاّ قبل لحظات فقط. وقد اوحت لها شخصيته باشياء لا تستطيع ان تتكهنها. وهو بلا شك يختلف عن اي رجل سبق لها ان قابلته. وسألته سارة بعناد محاولة ان تتفادى مجابهة الغموض والابهام.

«الا تظن انّ سيدة اكبر سناً مني تناسبك اكثر؟».

واستدار نحوها بصبر نافد متململاً:

«ولكن السيدات الناضجات لا يتمتعن دائماً بالكفاءة، ولا يمكنهن التكيف بسهولة، ويتطلبن غالباً وقتاً طويلاً للاستقرار».

ظنت سارة انها فهمت مقصده فقالت وهي تبتسم بأدب:

«أظنك تريد ان انتهي من عملي هنا باسرع وقت ممكن».

«ليس بالضرورة».

وتركت عيناه شعرها لتستقرا على وجهها بامعان متكاسل. كأنه يتفحص لوحة.

«في تقديري؛ المدة اللازمة لانجاز العمل هي ستة أسابيع ولكنه من المستحيل تحديد الوقت بالضبط».

«هذا يعني اننا قد ننتهي قبل المدة المقررة».

«أو بعدها، وهذا يتوقف على مدة بقائي هنا. فقد اضطر لقضاء بعض الوقت في لندن».

واستوعبت سارة فحوى كلماته بصمت. طبعاً لقد نسيت، انّ عمله الاساسي مقره لندن، وليس هنا. وجلست برهة تحدق في لوحة جهاز القياس أمامها، غير شاعرة بعينيه المتفحصتين، واخيراً تمتمت قائلة:

«لا شك انه من غير المريح ان يعيش المرء بعيداً عن المدينة».

ثم أضافت وقد أدركت أن ملاحظتها انما هي حقيقة معروفة للطرفين.

«لقد اخبرتني جين بأنك تعمل في تجارة الاستيراد».

«جين؟».

وعرت نظراته الحدّة اذ رمقتها عيناه باحتراس.

تمنت سارة لو انها لم تنطق بكلمة. وسارعت الى الايضاح:

«جين مارلي، صديقتي، هي سكرتيرة السيد كار. والحقيقة انها هي التي اخبرتني عن هذه الوظيفة».

«آه فهمت».

وتراخت اعصابه المشدودة بوضوح ومن دون سبب مفهوم لسارة. وأضاف:

«حسناً، من اجل ايضاح الامور يحسن بي ان اذكر بأنّ الاستيراد كان مهنة والدي وليس مهنتي، وذلك حتى لحظة اختفائه من يخته قبل ستة شهور، اما انا فقد عشت في الخارج معظم الوقت، انا مهندس».

«انا آسفة».

أجابت سارة ببطء، وبدا لها غريباً ألاّ يكون جيمس قد ذكر لها شيئاً عن هذا الحادث. ولو انها كانت على علم مسبق بذلك لاستطاعت ان تتجنّب هذا الموقف المحرج. وضاقت عينا هيو فريزر ثم قال بلطف، ولكن بنبرة حازمة:

«ان هذا كله لا علاقة له بك. اما بالنسبة الى تحديد المدة التي سيستغرقها عملك هنا فيمكننا التناقش بشأنها في المستقبل. انّ صدمة موت والدي كانت اكثر مما استطاع ان يتحمله عمي الذي كان يكبره سناً والذي لم يكن يتمتع بصحة جيدة. وكان عمي متعلقاً بلوخ غويل. ولكن لم ادرك الى اي حدّ اهمل الامور حتى اتيت الى هنا من اجل أن ارتب وانسق اعماله».

وتمهل لحظة، ولكن سارة تجنبت ان تعبر مرّة اخرى عن تعاطفها. فمن الواضح انه انما يفضي اليها بهذه التفاصيل الآن بسبب علاقتها بالعمل الذي جاءت من اجله، ثم قالت وهي تتذكّر بعض مرضى والدها المسنين:

«ان كبار السن يميلون بدون استثناء الى اهمال اعمالهم».

وتجاهل فريزر كلماتها، وتابع قائلاً باستعلاء وتجهم:

«وعندما لاحظت الفوضى التي سادت مكتب عمي لجأت في الحال الى طلب المعونة من جيمس كار. الاّ انه لم يكن بالامكان الخوض في التفاصيل قبل وصولك. فبالاضافة الى واجباتك الوظيفية، هنالك امر آخر اودّ ان اتحدّث اليك بشأنه قبل ان نصل الى لوخ غويل...».

فردّدت سارة وهي تحاول ان تخفي اضطرابها الفجائي وراء ابتسامة مشرقة:

«السكرتيرة الجيدة هي سكرتيرة متعددة المهارات».

فاطفأ فريزر سيكارته المحترقة قائلاً:

«انّ السيدة سكوت مدبرة منزلي، تحمل الراي نفسه على الاكثر. وهي بلا شك ستعتبر احدى مهماتها مراقبة تصرفاتك، ولهذا فانا احذرك».

ابتسمت سارة رغم التعب الذي كانت تشعر به فهي عادة تملك القدرة على مصاحبة من هم اكبر منها سناً.

«هل هي كبيرة السن؟».

قالت وهي تقابل عينيه الداكنتين بثقة متجددة.

«في الستينيات على ما اعتقد».

وتجعّد جبينه وهو يقول مسلماً:

«ان بيدي هي مؤسسة بكاملها او تكاد. واظن انه يمكننا اعتبارها فرداً

من العائلة. وتحب ان تتصرّف كما يحلو لها».

«لقد تحدّث السيد كار عن اختك غير الشقيقة». قالت سارة بجرأة ممزوجة بالحذر، كما ذكر بانك بحاجة الى من يساعدك على رعايتها».

ولاحظت سارة تجهماً في وجهه وهي تتكلّم، وكان التعبير المرتسم على ملامحه مزيجاً من نفاد الصبر والتسليم.

«ان جيل تقارب العشرين. ووالدتها وهي اميركية المولد، تقوم حالياً بزيارة طويلة لأميركا، ولهذا فانه من الناحية النظرية تقع مهمة رعاية جيل على عاتقي».

«الا يوجد شخص آخر؟».

«تعنين افضل؟».

ولمعت عيناه بسخرية اذ توردت وجنتاها وقال:

«لا، مع الاسف، لا يوجد من يستطيع التأثير عليها».

ورمته سارة بنظرة سريعة اذ ضاقت شفتاه الصارمتان، وقالت:

«يبدو انك تعاني من مشكلة».

«قد اكون... وهي مشكلة كنت بغنى عنها. يبدو ان جيل قد سمحت لنفسها بالاختلاط مع بعض رفاق السوء بعد سفر والدتها. ويا لسوء الحظ، قال متنهداً، كنت انا مشغولاً جداً، بينما لم يكن لدى جيل ما يشغلها ما فيه الكفاية».

«قد لا يكون يتعدّى الامر مجرد مرحلة تمر بها».

اشارت بلباقة، محوّلة نظراتها عن وجهه العابس الى يديه المشدودتين على المقود.

«وفّري عليّ الملاحظات التافهة، قال ووجهه ينطق سخرية، انت لا تعرفين اختي. فهي لا تمر بمراحل. كما انها تظن انها تعرف كل الاجوبة، ولكنها لا تعرف معنى المسؤولية. وجيل في الوقت الحاضر تعتقد بانها تحب فناناً فقيراً، وتصمّم على الزواج منه».

وقفزت عينا سارة الى وجهه ثانية. فمن الواضح، كما بدا من نبرات صوته، انه لا يوافق. هل السبب هو كون الرجل فناناً او فقيراً؟ وتمتمت بتردد:

«لو انه رجل مناسب فقد لا يبقى فقيراً دائماً في غير هذه الظروف».

«قد تستطيعين محاولة الاصغاء الي، يا آنسة دينتون».

قال مستديراً في مقعده وعيناه الساحرتان تلتقيان بعينيها الواسعتين المكشوفتين.

«مما لا شك فيه انك قطعت مسافة طويلة. ومن المحتمل أنّ التعب قد بلغ بك حداً يحول بينك وبين التفكير الصائب. ولهذا فأنا ارجوك ان تسمحي لنفسك بالاهتداء بارائي. وبالاضافة الى اني اعرف المزيد عن هذا الشاب. وما سمعته عنه يجعله بحاجة الى الكثير مما يزكيه. هذا لو توخيت في تقييمه جانب الاعتدال».

«ولكن هل قابلته؟».

سألته سارة بسرعة. وعلى الرغم من انه كان على بعد عدة سنتيمترات منها، فقد احست بان المسافة الذهنية بينها شاسعة. وفجأة ومن دون سبب تسارعت نبضاتها. وداخلها شعور بالتعاطف مع جيل المتمردة.

«ان ما يقلقني هو طبع جيل المندفع. وهي الآن تتماثل للشفاء اثر عملية جراحية، وستأتي الى لوخ غويل لتمضي فترة نقاهتها. ان احداً هنا لا يعرف شيئاً عن صديقها، ولهذا لا داعي لأن يذكره احد الا اذا اشارت اليه هي نفسها. من المحتمل أن تنساه اذا ما قضت فترة بدون ان تراه. وهنا اجد مساعدتك ضرورية انا لا اظن بانه سيتبعها الى لوخ غويل، ولكنني بحاجة الى من يراقبها ويخبرني فيما لو لاحظ شيئاً مريبا. لا اعتقد بانك ستجدين هذه المهمة شاقة جداً».

وعبست سارة، وهي غير مقتنعة بعد. واعتراها شعور مزعج بانها لم تسمع القصة بكاملها بعد. وبانه لم يذكر لها كل شيء. وفي قرارة نفسها احست بانّ الموضوع يخلفه شيء من الميلودراما، كقصة من العصور الوسطى. لا شك أنّ اسلوباً اكثر تفهماً وتجاوباً هو افضل من هذا الموقف الابوي الثقيل. لعل سفر والدة جيل قد اتاح لشعوره بالمسؤولية ان يفقد توازنه قليلاً. وسألت:

«أليس من المحتمل ان تكون مجحفاً في حقها بعض الشيء؟ فانّ الحب بين اختك وبين هذا الرجل قد يكون حقيقياً».

«لقد سبق أن ذكرت لك أن هذا مستحيل».

اجاب باقتضاب وبدا التصلّب جلياً في موقفه.

«الن تفعلي ما اطلبه منك؟».

وتساءلت سارة: الم يقع هو في الحب شخصياً؟ ثم داخلها الشك. انّ رجلاً مثله لا بد ان يخضع عواطفه لنظام صارم. ولا شك انّ قلبه لا يمكن ان يسمح له بان يلين الاّ اذا امره عقله.

ولما لم تجب اعاد سؤاله بصبر نافد وبصوت صارم.

«انا ارفض التجسس».

اجابت سارة بكل الحدّة التي جرؤت عليها. وتقابلت نظراتهما.

«انا لا اطلب منك ان تتجسسي. لا تكوني بلهاء».

وراحت انامله تمر خلال شعره الكثيف الداكن بغيظ. وكان الموقف كله قد اثار في نفسه التبرم:

«لو انك وجدت شيئاً فأنا اتوقع منك ان تخبريني. ولكن دون ان تبالغي في ابراز الحوادث الصغيرة بحيث تخرج عن سياقها».

«هل هذا امر؟».

«يمكنك اعتباره امراً».

«واذا لم اوافق؟».

واعتراها الخوف من الداخل، على الرغم من الغضب المشتعل في عينيها.

«لا اريد ان اجعل من الموضوع مشكلة. ولكن المرؤوسين عادة يكونون على استعداد لاطاعة الاوامر».

«ضمن حدود».

ارتجفت الكلمات على شفتيها ثائرة.

وجاء جوابه بسرعة بعث الرعدة في نفسها:

«كان يجب انّ اراك بنفسي في لندن».

ادركت سارة بحدسها ان احداً لم يجرؤ من قبل على تحديه.

وسمعت صوتاً... صوتها يجيب:

«حسناً لقد فزت. بما انني هنا فليس لي مجال كبير للاختيار. سافعل ما بوسعي».

كان استسلامها سريعاً، الاّ انه كان خالياً من اللباقة والكياسة. اذ انها كانت ما تزال تعاني من الثورة.

«حسناً».

وابتسم ابتسامة رجل تعوّد على تحقيق ما يريده دائماً.

وبدا وكأنه على استعداد للتصرّف بأريحية، متناسياً سلوكها الذي لا تفسير له.

«اظنك ستجدين أنّ الامر لن يتحدّى محاولة ايقاف جيل عن الاسراع الى لندن كلّما شعرت بالملل. والآن يحسن بنا ان نتابع طريقنا».

وادار محرك السيارة راجعاً بها الى الوراء بقوة. ثم غيّر الموضوع قائلاً:

«استنتج انه لا مانع لديك من العمل في خدمتي».

قالها بلطف وقد علا صوته على صوت المحرك.

اشتعلت عينا سارة الزرقاوان غيظاً بينما كان يدير السيارة. اذ احست ببلاغة كلماته واسلوبه معاً. ولكنها قررت ان تتجاهل انتقامه الذكي اللبق. لا شك انه يحس بانه لم يكن عادلاً تماماً. ولكن كيف تستطيع ان تناقشه في النواحي الدقيقة لموقف يبدو ظاهرياً بسيطاً نسبياً. فلو ان جيل وصديقها على علاقة حب فانه ليس من المحتمل الا يحاولا اللقاء. واذا ما تم هذا اللقاء فليس من المعقول ان يعتبرها مسؤولة.

«متى تصل شقيقتك؟».

سألت سارة بثبات وهي تتمسّك بحافة مقعدها من اجل ان تستعيد توازنها.

فابتسم ابتسامة ساخرة رداً على موقفها العدائي الملموس.

«بعد اسبوع او اكثر كما اتوقع. اذ انها ستبقى في لندن حتى تسمح لها حالتها الصحية بالسفر. وهذا سيتيح لنا الوقت الكافي لكي نشرع في العمل».

«طبعاً».

وضغطت سارة على نفسها حتى استطاعت ان تعود بذهنها للتركيز على المناظر امامها ثانية. وأحست بدوار خفيف وهي تمر عينيها بعيداً عنه وعن سيطرة رجولته الطاغية المبهمة وعينيه اللامعتين كبرق عواصف الصيف.

ثم اضافت بلهجة دفاعية:

«أنا معتادة على العمل الشاق وعلى الساعات الطويلة».

«من المستحسن ان تكوني هكذا».

واستعرضتها عيناه بحدة، مسجلتين تألق جلدها الناعم.

«لن يكون العمل هنا عطلة، او ما شابه ذلك. اذ انه علينا ان ننجز ما يعادل خمس سنوات من العمل المتراكم. من الواضح ان تقدّم عمي في العمر قد حال بينه وبين ان يرعى اعماله كما يجب».

«ألست مجحفاً في حقه قليلاً؟ ألم يكن هناك من يساعده؟».

«يبدو لي يا سارة، انك تحبين الاسئلة. ان عمي لم يكن بالشخص المغرم بالمكاتب واعمالها، وكان يفضل قضاء وقته في العراء».

ندمت سارة على حمرة الخجل التي صبغت وجنتيها والتي لم تستطع ان تسيطر عليها لحظة ان صدمها سماع صوت اسمها على شفتيه. وراحت تحدّق في انامله النحيلة محاولة ان تعطي نفسها مهلة صغيرة تستجمع خلالها شتات فكرها. فقد لاحظت في طبع فريزر نزعة من القسوة لم تعرف كيف تتصرّف حيالها. وهو بلا شك من النوع الذي اعتاد على المشاركة في المشاريع الكبرى في الخارج، والذي ينتقي موظفيه بعد طول تدقيق، متطلباً منهم شدة المراس وتنوع الكفاءات. واذا ما اصر فان اوامره فلا بد ان تنفّذ على اكمل وجه. وداخلها الشك في ان تستطيع هي النهوض الى مثل هذا المستوى.

راقب فريزر وجهها الساكن دون ان يستدير، ثم قال بهزة لامبالاة من كتفيه القويتين:

«ما هي النتائج التي توصّلت اليها داخل هذا الرأس الجميل، يا آنسة ديتون؟».

واندلع الغضب في نفسها كاللهب، ان هذا الرجل شيطان ساخر يلعب دوره بسهولة وبراعة، وشعرت سارة بكل اعصابها تتوتر. ولكنها حاولت ان تتكلّم بثبات.

«لقد كنت آمل ان نستطيع العمل معاً بمودة، يا سيد فريزر».

ولمعت عيناه باستمتاع.

«انا واثق من هذا يا آنسة ديتون، واذا ما استطعت تلبية طلباتي، فانني لن ألجأ الى الشكوى».

«لا تخف، سأفعل».

لم تذكر سارة انها في السابق قد شعرت بوجود رجل على هذه الصورة،

فكل شيء حوله؛ انحناءة رأسه المتغطرسة، وقوة كتفيه العريضتين، وذقنه كلها توحي بشدة برجولته. انه من النوع الذي لا بد أن يثير عداء النساء. ولكنها لاستغرابها ودهشتها، وجدت عينيها تعودان اليه مراراً والسيارة تندفع عبر طريق الجزيرة المنعزل.

بعد سالن، مال الطريق باتجاه الشاطىء الغربي. ووصلا لوخ غويل قرب نهاية العصر. ولم تنس سارة بعد ذلك ابداً تلك المرة الاولى التي شاهدت فيها القلعة الرابضة على حافة البحر بحجارتها الضخمة التي بدت وكأنها استمرار للمناظر الطبيعية حولها. وتربعت القلعة التي بنيت من الغرانيت والحجر الرملي فوق الصخور العالية لعبة للريح، والشمس الغاربة تصبغ بالذهب ابراجها وسطوحها.

ونظر الى وجهها المجفل:

«هل يخيفك هذا المكان، يا آنسة؟ لعله كان من الواجب ان احذرك مسبقاً».

فأشاحت سارة بوجهها عنه فلم يعد يبدو له منه الا استدارة الخد الكاملة.

«انني لا افزع بسرعة».

اجابت متمتمة بهدوء.

«هل تقولين الحقيقة؟».

قال وفي صوته نبرة خفيفة من الوعيد. بينما راحت عيناه تقيسانها ببرود وقد لاح فيهما واضحاً بارق من الغيظ المصطنع.

«هل تجدين انه من الضروري دائماً ان تهاجمي كالقنفذ. أظن انك شائكة مثله».

«هذا يمليه مبدأ الدفاع عن النفس، يا سيد فريزر. ولكنني اكره مقارنتك هذه».

«الدفاع عن النفس، او ذكرى علاقة حب انتهت نهاية مريرة، يا انسة دينتون؟ ان العلامات معروفة ويمكن التعرف عليها ببساطة بما في ذلك آلية الدفاع عن النفس».

اجابت سارة بعنف وبصوت منخفض:

«انت مخطىء تماماً».

فرد عليها بجفاء متناه:

«ان اليوم الذي اجد فيه نفسي على خطأ تام لم يولد بعد».

واحست بكلماته اللاذعة تلدغها فهبت قائلة:

«هذا لا علاقة له مطلقاً بما عنيته مسبقاً».

«قد لا يكون. لا شك ان الشخص الذي خلف على وجهك مسحة الحزن الغامضة هذه قد نجح تماماً في اداء مهمته».

قفز قلب سارة بألم. انها لا تستطيع التحدث عن والديها دون ان تخاطر بقدرتها على ضبط نفسها، ليس بعد. ثم انها لم تكن تريده ان يحزر الحقيقة، من الافضل ان تدعه يصدق ظنونه اذ انها لا تريد عطفاً منه، ولا تنشد الا النسيان.

«اقترح بان نعلن هدنة بيننا، يا انسة دينتون. قال ناظراً اليها، وشبح ابتسامة في عينيه، فأنت تملكين لساناً سليطاً اذا ما استثرت».

وعبر بسيارته تحت قوس حجري ضخم بمرونة خلقتها العادة، باتجاه الساحة المبلطة وبدا هادئاً بينما احست هي باعصابها مشدودة كالوتر.

تنفست سارة الصعداء. لعلها تستطيع الآن ان تتجنب فريزر حتى يتسنى لها جمع افكارها المبعثرة. وتذكرت ما قاله لها اثناء حديثهما عن شعوره بالندم لأنه لم يقابلها ويختبرها بنفسه. انها هي ايضاً نذرت واعدة نفسها، لن تقبل في المستقبل مطلقاً اية وظيفة قبل ان تقابل شخصياً رئيسها الموعود، هذا على الرغم من ان القليل من الرؤساء يمكن ان يكونوا على شاكلة هيو فريزر. وقفز عرق صغير في اسفل عنقها لاحظته عينا فريزر قبل ان يوقف السيارة قائلا:

«اذا كنت في حالة تسمح لك، ولمس ترددها وعصبيتها، فلعلك تحبين ان تقابلي بيدي. من المحتمل ان تلقى لديك قبولاً اكبر مما لقيته اناه».

«بالطبع».

وابتسمت محاولة ان تعكس تماسكاً لم تشعر به، محاولة، دون نجاح، ان تجابه سخريته اللاذعة بسخرية مماثلة. ولاحظت حاجبه الايمن بحركته المعهودة يرتفع، فاشتعلت وجنتاها خجلاً اذ شعرت بوطأة انتصاره النهائي، وهما يجتازان الساحة المبلطة متجهين الى الداخل.

٢ - قلعة الأشباح

تبعت سارة هيو فريزر بخطوات سريعة الى مدخل القلعة وقد صممت في نفسها الا تتيح له فرصة ازعاجها اكثر مما فعل. وسارت وراءه عبر ممر ارضي طويل ذي سقف معقود، وخلال باب قادهما الى قاعة كبيرة مربعة مبلطة كسيت ارضها بالسجاجيد، وزينت جدرانها بعدد من اللوحات الجدارية المنسوجة التي كانت تعلو مجموعة من الصناديق الخشبية المحفورة. وتربعت على احد هذه الصناديق باقة من زهور التوليب الصفراء الطويلة التي راحت تتألق في النور الخافت المتسرب من النوافذ الضيقة. وفي احدى نهايتي البهو رأت سارة درجاً لولبياً صاعداً احتضنته سماكة الجدران. وكانت تغطيه سجادة حمراء ثخينة.

«اهلاً بك في لوخ غويل».

تمتم هيو فريزر بكياسة من ورائها. واستدارت لتنظر اليه دون ان تتكلم فقال مبتسماً وقد لاحظ الدهشة المرتسمة على وجهها:

«ستعتادين على القلعة بسرعة. انها تبدو كبيرة، ولكنك عندما تتعلمين كيف تجدين طريقك خلالها ستنسين ضخامة حجمها. وستجدين بأننا هنا في الحقيقة نتمتع بقسط كبير من الراحة».

«طبعاً».

اجابت بسرعة بينما اخذ هو ذراعها وقادها بحزم عبر القاعة المبلطة الى الدرج الحجري الصاعد الى الطابق الأول، والذي انتهى بهما الى قاعة اخرى. وشعرت سارة بتحسن في الحال. اذ ان النوافذ الطويلة الثلاث التي اطلت من كواتها المقوسة العميقة في الجدران كانت تتيح لكمية كافية

من النور بالنفوذ خلالها مما محى الشعور بالكآبة الذي خلفته القاعة الأرضية في نفس سارة. وتناهت اليها رائحة قطع الخشب العطرة التي كانت تحترق في مدفأة كبيرة واسعة زينت اعمدتها الجانبية بالنقوش المحفورة.

وأحاطت بالقاعة مجموعة من الأبواب المصنوعة من خشب السنديان المحفور والتي تقود بدون شك الى الغرف الداخلية. وفي نهاية القاعة شاهدت سارة درجاً ملتوياً مماثلاً للدرج الذي صعدته منذ قليل.

«إننا نعيش في هذا الطابق والطابق الذي يعلوه».

وأرخى قبضته على ذراعها المشدودة رافعاً حاجبيه بحركته المعهودة. ولكن قبل ان تجد سارة فرصة للاجابة فتح احد الأبواب الذي كان واضحاً انه يقود الى المطبخ، وهرعت منه امرأة صغيرة الحجم مرتبة الثياب.

«آه، ها هي بيدي!» قال بلهجة سجلت فيها سارة شعوراً بالخلاص.

واستدارت لتواجه بيدي التي بدت صغيرة الحجم بالتأكيد. ولكن هالة من الوقار والرصانة النابعة منها جعلتها تبدو اطول مما هي عليه. وبدت كمن تعودت على اعطاء الأوامر وتوقع الاطاعة. الا ان وجهها كان يشع بطيبة واضحة، مما جعل سارة تميل اليها في الحال.

ومدت سارة يدها الى بيدي التي استجابت بحركة مماثلة بينما قام هيو بمهمة التعريف.

«اتمنى ان تعجبك القلعة، يا آنسة».

قالت بأدب وعيناها تستقران على وجه سارة المحمر.

«سادق الجرس لأطلب من كاتي ان ترشدك الى غرفتك. فأنا اتوقع ان تكوني متعبة بعد رحلتك».

وامتدت يدها الى الجرس دون ان تنتظر جواب سارة.

«انا لست على عجل».

اجابت سارة بهدوء وقد اعتراها شعور غريب بأن تحاول اثبات وجودها. فقد احست دون تفسير منطقي بأن كلا من هيو وبيدي قد سعيا الى فرض ارادتهما عليها.

وقابلتها عينا هيو اللامعتان.

«يمكنك ان تتحدثي الى بيدي فيما بعد. وتطلبي منها ان ترتب المكان. اما الآن فأظن انه من الحكمة ان تفعلي ما اقترحته عليك، فأنت بلا شك

قد جابهت يوماً طويلاً».

وأحست سارة بأنه اختار ان يسيء فهم مشاعرها عن قصد.

«ان السيد هيو على حق».

قالت بيدي هازة رأسها الفضي الرمادي بالموافقة، مبتسمة برضى. «ستشعرين بالتحسن غداً بعد قضاء ليلة مريحة، وستجدين الكثير مما يشغلك».

«سأحاول ان امد يد المساعدة بالتأكيد. وحادت سارة بنظراتها عن هيو بسرعة مخاطبة بيدي: هل هنالك ما يمكن ان افعله الآن...؟».

وتلاشت كلماتها تحت وطأة التردد، ولم تحاول ان تنظر الى هيو اذ تخيلت التعبير الساخر المرتسم على وجهه. وهب في نفسها شعور مزعج بالثورة بينما راحت يدها تمسح جبينها بتعب. لا شك ان بيدي تنفذ كلماته بحذافيرها. ولكنه لا يجب ان يتوقع منها ان تفعل الشيء نفسه.

واومأت بيدي برأسها بالموافقة ثانية، غير شاعرة بالتيارات الخفية السارية في الجو حولها. وقالت بلطف:

«ستحضر كاتي في الحال، يا آنسة ويتون، احياناً يخيل لي انها قد اضاعت طريقها».

احست سارة بأنه من العبث ان تتابع الحديث، فابتسمت وراحت تنتظر قدوم كاتي بصمت. وعادت الى التحديق فيما حولها باهتمام متجدد، بينما اخذت بيدي تناقش فريزر بشأن رجل جاء لزيارته بينما كان غائباً.

لم يسبق لسارة ان عاشت في مثل هذا المكان العتيق من قبل. وتساءلت بشيء من التخوف فيما لو انها ستألفه وتحبه. لا شك ان عمر هذه القلعة هو المئات من السنين، من المحتمل انها بنيت في القرن السابع عشر، ولا بد ان الاشباح تسكن ممراتها الدامسة. وبدا لها ان شخصاً ما في وقت ما قد قام بتجديد القلعة من الداخل بحيث استطاع ان يجمع في اسلوب بنائها القديم والحديث. ففي هذا البهو الواسع الذي يعبر عن ذوق رفيع يستطيع المرء ان يجد كل مظاهر الراحة. وفكرت وهي تصعد الى غرفتها، بعد ان جاءت كاتي لتقودها اليها، بأن كل شيء داخل القلعة قد صمم بحيث يتيح لاصحابها فرصة العيش المتكامل.

وجدت سارة ان غرفة النوم التي خصصت لها كانت داخل احد ابراج

القلعة المستديرة. ولم يكن فرشها حديثاً ولكنه كان جذاباً، غير عادي. وغاصت قدماها في السجادة الوردية السميكة والتي كان يماثلها لوناً غطاء السرير المزركش وغطاء الكنبة المجاورة للسرير. وعلى طاولة صغيرة قرب الكنبة رأت مجموعة من الكتب والمجلات، بينما راحت مدفأة كهربائية تشع دفئاً مريحاً حولها. وذكرتها الغرفة، برغم الاختلاف، بغرفة الضيوف في منزل والديها.

اشارت كاتي الى الطاولة الصغيرة، وكانت مثل بيدي قد تفحصت سارة ورمقتها بنظرات الاستحسان.

«قد تحبين ان تجلسي هنا في بعض الأحيان. قالت وهي تبتسم لسارة بمرح، ولهذا فقد تركت لك بعض المجلات».

وشكرتها سارة بسرعة معبرة عن امتنانها وهي تبتلع غصة من الحنين الفجائي. وخمنت بأن كاتي هي الخادمة. واحست بميل اليها وهي ترمق وجهها المستدير المرح وعينيها الذكيتين اللامعتين وابتسامتها الودية المبتهجة. واختفت كاتي لبضع دقائق، ولكنها سرعان ما عادت تحمل صينية عليها ابريق من الشاي الحار وبعض شرائح الخبز والزبدة الساخنة.

«هذه الصينية من بيدي. وتابعت لاهثة: وقد اخبرني بأن اذكر لك بأن موعد العشاء هو السابعة».

بعد ان استحمت سارة واستراحت قليلاً ارتدت ثوباً ناعماً وهبطت الدرج الى الأسفل.

ثم تناولت عشاءها في غرفة طعام صغيرة قرب قاعة الاستقبال. ولما وجدت نفسها وحدها في هذه الغرفة الفاخرة، اذ انها لم تستطع ان ترى هيو في اي مكان حولها، تمنت، متأخرة، لو انها طلبت تناول العشاء على صينية في غرفتها.

بعد مضي بعض الوقت جاءت بيدي لتتأكد من ان كاتي قد جلبت كل شيء تحتاج اليه سارة، وتلكأت حتى انتهت الضيفة من تناول قهوتها في قاعة الجلوس.

«ان السيد هيو قد ذهب لتناول العشاء مع بعض الاصدقاء».

قالت لسارة التي لم تشأ ان تسأل كاتي عن سبب تغيبه.

«انه يقضي في العادة وقتاً كبيراً خارج المنزل. لا يوجد حالياً من يوفر له

الصحبة الكافية، ولكن الظروف ستتغير طبعاً عندما تصل الآنسة جيل. آمل الا يكون خروجه قد ازعجك يا آنسة».

«لا».

لم تشعر سارة بأي ازعاج بل احست بارتياح لم تستطع له تفسيراً عندما وجدت نفسها بمفردها. ثم انه ليس لها ان تعترض على الكيفية التي يقضي فيها رئيسها اوقاته. ولكن يبدو ان بيدي لا تدرك هذا، فهي على الأغلب لم تضطر الى التعامل مع سكرتيرة من قبل.

«اتوقع ان اتعود على العيش هنا في وقت قصير. ثم اظن انك عشت هنا مدة طويلة».

«يبدو ان بعضنا لن يستمر في العيش هنا في المستقبل بعد ان آلت ملكية القلعة الى السيد هيو».

ردت بيدي بحدة. وبدا وكأن الكلمات قد افلتت منها لا ارادياً بعد محاولة كتمان طويلة.

«وطبعاً، سارعت بيدي لاتمام الحديث، نحن نقدر بانه قد يجبر على بيع لوخ غويل، او يضطر الى استخدام من هم اصغر سناً. بعض مستخدميه يتقدمون في العمر، وواحد او اثنان منهم - مثلي - يعانيان من الروماتيزم».

وتنهدت وهي تضغط بيديها على ركبتيها النحيلين، دون ان تنتبه، وكأنها تريد ان تعطي كلماتها مزيداً من التأكيد.

وضعت سارة قهوتها جانباً، وحدقت في وجه بيدي. لقد املت ان تستطيع الابتعاد بالحديث عن هيو فريزر، ولكنها وجدت نفسها تعود الى الموضوع كالكرة. من المؤكد انه لن يحاول ان يحرم هؤلاء المستخدمين المسنين من بيوتهم، حتى ولو كان عمه هو المسؤول عن عدم تأمين مستقبلهم قبل وفاته. وراحت سارة تنظر الى عظام بيدي الهشة وقد ضاعت الكلمات على شفتيها.

واخيراً قالت، باذلة محاولة متخبطة لبعث الاطمئنان في نفس بيدي:

«لا شك ان السيد فريزر يضطر الى السفر مراراً. ولهذا أظن يكون من الافضل ان تبقي انت هنا لتعتني بالبيت اثناء غيابه؟».

«قد يتزوج تاركاً لزوجته مثل هذه المهمة، اجابت بيدي رافضة اية مواساة. ان النساء يجدنه شديد الجاذبية. وهناك آنسة معينة تميل اليه جداً».

هضمت سارة هذه المعلومات بصمت دون ان تستطيع تفسيراً للرجفة البسيطة التي اصابتها.

«قد تستطيع الآنسة جيل ان تساعد».

ولكن بيدي بدت وكأنها ندمت على ملاحظتها المندفعة، اذ انها التفتت بسرعة وغادرت القاعة حاملة معها فنجان القهوة الفارغ وهي تتمتم:

«انا لا ارغب في ازعاج الآنسة جيل. انا واثقة ان السيد هيو سيجد حلاً لكل مصاعبنا فيما لو اتيح له الوقت الكافي».

قالت هذا واختفت عبر الباب الأخضر الذي يقود الى المطبخ، هاتفة لسارة بصوت مرتفع بأنها تستطيع ان تدق الجرس طالبة كاتي فيما لو احتاجت الى اي شيء. لقد نسيت بيدي، كما بدا واضحاً، انها وعدت بأن تريها القلعة. وفكرت وهي تنظر الى الباب المتأرجح بأن هذا يعني ان عليها الانتظار حتى الغد لكي تتعرف على المكان.

دهشت سارة عندما وجدت انها نامت نوماً عميقاً تلك الليلة في القلعة. وعندما استيقظت لم تستطع ان تفهم اين كانت للوهلة الأولى. ثم صدمتها المعرفة مع عودة وعيها. انها في قلعة لوخ غويل بجدرانها السميكة المتجهمة، ولكن سريرها كان مريحاً. غمرتها اشعة الشمس المتسربة من النافذة نصف المفتوحة فرمت اغطيتها بعيداً وقفزت جارية الى النافذة لتنظر من خلالها. كان المنظر رائعاً من برجها المستدير. وبدا البحر بلا نهاية من الزرقة المتألقة. وعندما نظرت الى الأسفل رأت مجموعة من الخلجان والرؤوس الصغيرة بمحاذاة الشاطىء الذي احست به يناديها. وغسلت وجهها بالماء البارد بسرعة وارتدت ثيابها على عجلة مختارة بنطلونها الجينز القديم وقميصاً مناسباً ضيقاً. وكان هيو فريزر قد ارسل لها رسالة مع كاتي في الأمسية الفائتة ليخبرها بأنه سيكون في انتظارها في غرفة المكتبة بعد الافطار. ولما كان الوقت لا يزال مبكراً، حوالى السابعة فقط كما اكدت لها ساعتها، فقد قررت سارة ان تذهب للاستكشاف.

عندما وصلت سارة الى الردهة، ارتدت صندلها الخفيف وقفزت هابطة الدرج الملتوي. لم تجد اي مخلوق في طريقها، وكان الصمت مخيماً على القلعة الضخمة مما جعلها تحس بأنه لو وقع دبوس على الأرض لسمعته. وحادت عن مدخل القلعة المهيب، متجهة نحو مؤخرة القاعة. ولم تجد

صعوبة في العثور على الممر الطويل الذي سارت عبره البارحة مع هيو فريزر والذي قادها في النهاية الى ساحة القلعة.

في الساحة ايضاً كان الصمت مخيفاً مما جعلها تشعر وهي تشق طريقها الى قلب صباح ربيعي مثالي بأن العالم كله ملكها. ودارت حول القلعة باتجاه حافة المنحدر ونظرت الى الصخور الشاهقة والشاطىء تحتها. كانت حركة الجزر قد عرت جزءاً كبيراً من الشاطىء، تاركة بركاً صغيرة عميقة خضراء بين عروق الصخور السوداء. ولكن الرمال لم تكن بالكثافة التي قدرتها عندما نظرت الى الشاطىء من النافذة. وقررت وهي تحدق عبر المياه الساطعة الى منحدرات جبل بن مور الهابطة بلطف نحو الأرض المنبسطة على طول الشاطىء المقابل بأن هذا المكان هو المكان المعروف بلوخ ناكيل.

ولم يخطر ببالها وهي تطل على الشاطىء من فوق بأن المنحدر الذي وقفت فوقه قد يكون شديد الميل. وظنت انه لا بد ان يكون هنالك طريق ينتهي بها الى هذا الشاطىء المغري الذي يمتد تحتها.

وقعت سارة في اسار المنظر الجميل المحيط بها. ووجدت نفسها تستمر سائرة حتى وصلت الى فوهة شق ضيق ينحدر بين الصخور بدا لها وكأنه بقايا مسلك قديم يقود الى الشاطىء، رغم ان الاعشاب قد كادت تكسوه بالخضرة مما يدل على انه لم يستعمل لسنوات عديدة.

ومن دون تفكير شقت سارة طريقها بتصميم خلال الاعشاب النامية، مزيحة الاغصان البرية الميتة، محاولة ان تثبت قدميها على الأرض الزلقة التي بللتها الأمطار. وفجأة، ربما لشعورها بأن الوقت كان يمر، احست بأنه من الضروري ان تصل الى الشاطىء. واشتبك شعرها ببعض الأشواك التي انتزعت الشريطة التي ربطت بها شعرها مما جعله يتناثر فوق وجهها حاجباً عنها الطريق. وانزلقت قدماها على الدرب فتزحلقت مسافة عدة امتار، لكنها عندما نهضت وجدت نفسها، لاستيائها البالغ، واقفة على افريز صخري لا منفذ له. ففوقها امتد الدرب عمودياً الى الأعلى، بينما انحدرت الصخور ملساء تحتها، هابطة عدة امتار نحو الأسفل.

وبحركة مرتجفة من يدها ازاحت سارة شعرها المتمرد عن وجهها وقد عراها الاضطراب. ان خطتها لم تقدها الى النتيجة التي نشدتها. فهي لن تستطيع الصعود سالكة الدرب نفسه الذي قادها الى هنا، كما انه ليس

بالامكان ان تستطيع الوصول الى الشاطىء فوق الصخور الملساء المنحدرة دون ان تكسر قدماً او رجلاً. وفي مخيلتها رأت نفسها تعود الى بيتها في لندن في سيارة اسعاف مما جعلها تبتلع ريقها بتشنج والرجفة تسري في اوصالها. ثم انه لو تناهت الى هيو فريزر قصة ما اقدمت عليه هذا الصباح لما قبل منها عذراً.

كان من المحتم ان يعتري سارة الفزع. فلقد كان الجرف الصخري الذي وجدت نفسها فوقه ضيقاً وغير مريح. ولم تجد فيه ملجأ يحميها من الرياح الباردة الهابة من البحر. ونفذ البرد خلال قميصها الرقيق الى جلدها العاري فجثت خلف الصخور منطوية على نفسها محاولة ان تحتفظ بدفء جسدها. ورأت بعض الطيور البحرية التي تشبه البط قرب حافة المياه تحتها وبعض طيور «الغيلموت» تغوص بينها. ولكنها لم تجد اثراً لأي انسان. وجربت ان تنادي ولكن لم يسمع نداءها احد. وادركت سارة بأنه حتى لو وجد شخص في مكان قريب فإنه من المستحيل ان يسمعها فوق زئير الأمواج.

تنفست سارة ثلاث مرات بعمق متذكرة نصيحة والديها لمعالجة الخوف. وحاولت ان تغير من جلستها غير المريحة... لا بد ان يأتي احد، همست سارة لنفسها بندم. انه من المضحك ان تشعر بمثل هذا الفزع. ولكن كل ما استطاعت ان تراه في ذهنها كان وجه هيو فريزر الساخر. ماذا سيقول لو انه سمع بمغامرتها هذه وراحت تتخيل تعليقاته اللاذعة.

ولكنها يا للفزع، لم تضطر الى الانتظار طويلاً، اذ تناهى اليها وقع حوافر حصان فوق الرمال قبل ان تلمح هيو فريزر نفسه قادماً باتجاهها. وقفزت الى قدميها بجنون مما جعلها تكاد تفقد توازنها، وصرخت محاولة ان تجذب انتباهه.

الجم هيو فريزر حصانه الكستنائي بحدة مديراً رأسه. ثم رآها تلوح من فوق الصخور فوقه. ورماها بنظرة طويلة ثاقبة سرعان ما تلاشت قبل ان يشد اعنة الحصان ويعدو به الى البقعة تحتها.

«ماذا تفعلين هناك بحق الشيطان؟ صرخ قائلاً بجفاف، لقد ظننت بأنني استأجرت سكرتيرة لا بهلوانة».

وبدا في عينيه الاشمئزاز واضحاً.

«آسفة! صاحت سارة مجيبة بغضب، انني لم افعل اكثر من اتبع

الدرب».

«الم تري لافتة، او تخمني مدى ارتفاع هذه الصخور؟ ان احداً لم يستعمل هذا الدرب منذ عدة سنين. والأعمى يستطيع ان يلاحظ هذا».

«لم ادرك...».

وبذلت سارة جهداً واضحاً لكي تلجم سيلاً من الكلمات المندفعة. وهذبت الفاظها حتى بدت وكأنها مجرد التماس للمساعدة، على كره. وراحت عيناها ترمقانه بغضب مكتوم بينما علا صوتها تطلب المساعدة بأدب.

«لو استطعت ان تستديري وتتعلقي بالحافة متدلية بجسدك، فسيكون بوسعي ان اطالك».

ولم تفت سارة لهجته الجافة، ولكنها وجدت انه من العبث المجادلة. وقررت ان محاولة التخلص من هذه الورطة بأسرع وقت ممكن هي الطريقة الوحيدة للتقليل والتخفيف من ملابساتها. فأخذت نفساً عميقاً ثم فعلت ما طلبه منها مغمضة العينين. وشعرت بدقات قلبها تتسارع عندما راحت قدماها تتأرجحان في الفضاء. ولكن في اللحظة التي بدأت فيها اناملها تنزلق من على حافة الصخرة شعرت بقبضتيه الفولاذيتين تمسكان بها وتحطان بها على ظهر الحصان امامه.

«ارجوك، دعني اهبط الى الأرض يا سيد فريزر».

واحست بانفاسها تختنق في حنجرتها بينما راحت اناملها المرتجفة تحاول ان تنفذ بلا وعي خلال خصلات شعرها المتشابكة.

ولكن فريزر لم يكبح حصانه الا بعد مرور عدة دقائق. وبدلاً من ان يطلق سراحها، شدد قبضته عليها وهو يشير في البعد الى بقعة بدا فيها مستوى البحر ومستوى الصخور اكثر تقارباً واسهل على التسلق.

«لو انك تابعت المسير، قال بصوت جاف لكان بوسعك ان تهبطي الى الشاطىء بسهولة. وما كنت انتهيت الى ما انتهيت اليه».

ادارت سارة رأسها بحيث لم يعد ظاهراً من وجهها الا جانبه الذي راح يختلج بالتوسل.

«كيف كان من الممكن ان اتكهن؟ لقد وصلت البارحة فقط».

واحست بتفاهة ملاحظتها حتى قبل ان يسارع فريزر للاجابة بحدة:

«كان هذا ادعى لأن تطلبي النصيحة».

كانت كلمات فريزر منطقية، ولكنها في حالتها الراهنة ما كانت قادرة على التفكير السليم وشعرت بقربه الشديد منها، حتى انها احست بضربات قلبه عكس كتفها، وحاولت ان تبتعد عنه قليلاً، ولكنه لم يبد كمن يريد التخلص منها بسرعة. واستأنف فريزر محاضرته، رافضاً ان يتيح لها فرصة الفكاك منه بسهولة.

«يجب ان تحاولي التذكر في المستقبل بأن بعض نواحي هذا الشاطىء قد تكون كثيرة المخاطر. فالصخور تعلو جداً في بعض الأماكن، وبعضها مقلقل غير ثابت. عندما جئت الى هذا المكان من الشاطىء للمرة الأولى، وانا ما ازال صبياً، كان الدرب الذي عثرت انت عليه ينحدر حتى مستوى الشاطىء. ولكن جدار الصخر الذي يعلوه سقط معظمه فوقه في السنوات التالية مما يجعل من تدفعهم الحماقة الى استعمال الدرب يجدون انفسهم وقد وقعوا في فخ لا مخرج منه».

«اذن، انا لست الأولى؟».

«ولست الأخيرة، على ما اعتقد. الناس لا يكفون عن اثارة دهشتي». وانعقد حاجباه وهو يتابع: ان ساحل الجزيرة يجب الا يقارن بشواطىء المصايف الانكليزية».

انتفضت سارة غضباً. هل قرر ان يسلك سلوكاً مهيناً. لا شك انه من الذين يؤمنون بالتعبير عن آرائهم. طبعاً انه على حق في ان يشعر بالغضب، فهي قد تصرفت في منتهى الحماقة وتسببت في تضييع وقته الثمين. ولكن بما انه لم يحاول ان يسألها، عن مشاعرها انه لن يستطيع ان يتهمها بتبذير عطفه. واعتراها شعور حاد بالشفقة على النفس وهي ترتكز بنظراتها على عرف الفرس البني الأحمر، وعيناها الزرقاوان تفيضان بالثورة.

«آمل الا يكون التعرض للبرد قد سبب لك بعض المعاناة».

وتصلب جسمها اذ شعرت بعينيه تتفحصان بتعمد، مظهرها الأشعث، ولما تأكد له انها كانت نسبياً، في حالة جيدة سارع الى متابعة كلامه دون ان يتيح لها الفرصة للاعتراض:

«هل تدركين أن عليك ان تبدأي العمل في اقل من ساعتين؟».

«لن استطيع اذا لم تسمح لي بالنزول».

اجابت مدافعة عن نفسها بصوت مختنق. ولكنه، كالسابق، لم يعرها انتباهاً، بل اخذ يحث حصانه الضخم على تسلق المنحدر الهابط الى الشاطىء.

عندما وصلا الى قمة الصخور، وجدت سارة ان القلعة كانت ابعد مما توقعت. واحست بنفاد صبره وهو يشير الى القلعة قائلاً بجفاء:

«تستطيعين ان تجدي طريقك الآن. وعندما يحلو لك الهبوط الى الشاطىء في المستقبل حاولي ان تنتبهي الى حركة البحر. فقد يفاجئك المد قاطعاً عليك طريق الرجعة. ومن المحتمل الا تجديني بقربك لكي تطلبي مني انقاذك ثانية».

وفجأة هبت الريح عابثة بشعرها الذي تطاير فوق وجهه فمد يده ليزيحه مما جعل أصابعه تلامس مؤخرة عنقها العاري.

«لن يكون هذا ضرورياً بالتأكيد. لعله من الأفضل الا اغادر منطقة القلعة مطلقاً».

ولأول مرة في حياتها وجدت نفسها تندفع الى الكلام دون هدى. وانذرها بصيص من الحكمة في اعماقها بانها قد تجاوزت حدود الأدب مع شخص هو رئيسها.

ولكن هيو فريزر اختار ان يتجاهل انفجارها. ولم يفعل اكثر من ان يخزها بذراعه وهو يشد لجام الحصان مما جعلها غير قادرة على التأكد فيما اذا كانت هذه الوخزة متعمدة ام لا.

«ما هي نوعية الناس الذين عملت في خدمتهم سابقاً؟».

سأل بصوت مصقول وهو يساعدها على النزول:

«والداي».

اجابت سارة باقتضاب، مستعيدة توازنها، ومادة قامتها باحتراس. ان ذكرى والديها ما تزال تثير الألم في نفسها. ولو ان جيمس لم يشرح لفريزر حادث الطائرة لما كان هناك ما يدعو للظن بانه فعل، فإنها شخصياً لا تنوي ان تذكر له شيئاً. واكفهرت عيناها اذ تناهت اليها ملاحظته الجافة.

«يا ترى، هل تصرفا بحكمة عندما افلتا زمامك؟».

حدقت سارة في عينيه مجابهة نظراته الساخرة، ووشت لها جلسته الواثقة بسيطرته التامة على الحصان الكستنائي الضخم. هل يتوقع ان يستطيع

السيطرة على النساء بالطريقة نفسها. ورفضت ان تجيب على سؤاله الأخير.

وحولت نظراتها عنه وهي تتنهد بصمت. ثم قالت لا شعورياً بصوت يفعمه التوسل:

«انني لا املك الا ان اسألك ان تمنحني فرصة اخرى. ليس من العدل ان تطلب مني المغادرة بسبب هذه الحادثة فقط».

«ليست بداية عظيمة كما يجب ان تعترفي. سنرى كيف تسير الأمور. ان فرص العثور على شخص آخر في هذا الوقت المتأخر صعبة. وبالاضافة، انا اريد الاعتماد عليك في رعاية اختي».

وفجأة عرت الحدة نظراته وتابع:

«اما الآن فانا اشير عليك بأن تسرعي لتناول بعض الفطور. والا فإنك لن تصلحي لأي شيء هذا الصباح».

وارتفعت كتفاه تحت قميصه السميك بحركة آمرة بالانصراف. فجرت بدون ان تلوي على شيء، ولم تتوقف حتى وصلت الى غرفتها.

في غرفة الطعام حيث وضع طعام الفطور على المائدة لم تتناول سارة سوى فنجان من القهوة وقطعة خبز. ثم سألت كاتي عن الطريق الى قاعة المكتبة.

«سيري في هذا الممر يا انسة. المكتبة هي الغرفة الاخيرة على يمينك».

وظهرت الخيبة على وجه كاتي عندما رفضت سارة ان تأكل المزيد.

«ان الآنسة جيل عندما تأتي الى هنا من عادتها ان تتناول فطوراً كبيراً. وهي تقول بأن الهواء هنا يفتح شهيتها».

أسرعت سارة عبر الممر وطرقت باب المكتبة باحتراس. وكما خشيت، وجدته في انتظارها. ولم تفتها نظراته الفاحصة وهي تعبر الحجرة. هل كان يتوقع ان يراها بالبنطلون الجينز؟ وسرها ان شعرها كان مرتباً وانها لم تستعمل الا قدراً طفيفاً من الماكياج.

طرق فريزر لب الموضوع من دون مقدمات، ومن دون ان يذكر مقابلتهما على الشاطىء. وقال وهو يشير الى مكتب صغير قرب النافذة:

«لقد طلبت وضعه هناك خصيصاً من اجلك. لا يوجد مكان كاف هنا».

ونظر الى المكتب الكبير الذي كان يجلس وراءه نظرة مفعمة بالعبوس.

وتبعت سارة اتجاه نظراته بدهشة: أكوام من المراسلات متناثرة هنا وهناك، وحتى الادراج بدت مكتظة. حسناً لقد انذرها!

وعبرت الحجرة الى مكتبها وهو ينتظرها بسلبية. ثم جلست.

«لقد اشتريت هذه من لندن قبل عدة ايام».

قال وهو يراقبها تزيح غطاء الآلة الكاتبة الجديدة.

«ان عمي، كما هو واضح، ما كان يحبذ استعمال هذه الأشياء. ولكنني لا اعتقد اننا نستطيع التدبير من دون واحدة».

والتقط بعض الأوراق بينما ابتسمت سارة بأدب وراحت تتفحص الآلة باهتمام.

«في البداية اريد ان املي عليك بعض الرسائل التي يمكنك ان تطبعيها عندما اخرج لتناول الغداء».

تناولت سارة دفترها متأهبة ولكن لتجد أنه قد عاد فوضع الأوراق على المكتب وراح يفكر:

«لعله مما يسهل الأمور ان تفهمي، يا انسة ويتون، انني لا املك وقتاً كبيراً للعمل هنا. ومن المحتمل ان اتركك وحدك مراراً لكي تتصرفي الأمور بمفردك - كما اتوقع ان يكون جيمس كار قد اخبرك».

«لقد ذكر لي بأنك انسان مشغول».

«هذا تبسيط للحقيقة».

وأخرج قداحته وأشعل سيكارة دافعاً كرسيه الى الوراء. وعب نفساً عميقاً وهو يحدق فيها من خلال الدخان.

«قد تمر بك اوقات في المستقبل تحسين خلالها بوطأة العمل الشديد، ولكن عندما اذهب الى لندن يمكنك ان تنسي كل هذا وتلعبي مع جيل. اكتشفا الجزيرة معاً. جيل تعرفها جيداً وسيسعدها ان تريك معالمها».

«اتوقع ان نجد ما نفعله».

«في الوقت الحاضر ستكون ساعات عملك غير منتظمة. احياناً، اضطر للعمل في المساء بعد تناول العشاء. آمل الا يزعجك هذا».

احست سارة بأنها لا تستسيغ اسلوبه في اصدار الأوامر مغلفة بصيغة سؤال ليس بوسعها الاعتراض عليه. لكن اذا ما توخى المرء العدالة، تعترف سارة أنه لا بد ان يكون مشغولاً جداً بكل مشاريعه ومهامه

المختلفة. لعل الوقت مناسب الآن لأن شيئاً في صالح بيدي وكاتي. ولكن كيف تستطيع ان تسأله عن مستقبلهما في اول يوم تعمل فيه هنا؟ قد يفسر تدخلها بالوقاحة المطلقة، هذا اذا لم يجد تفسيراً أسوأ. وعلى الرغم من شكوكها وجدت نفسها تسأل لا ارادياً:

«هل تنوي الاشراف على مزرعة لوخ غويل بنفسك؟».

«قد افعل في النهاية».

والتمعت عيناه قليلاً وكأنه قد خمن بعض ما كانت تفكر فيه.

«الا انني ما كنت اتوقع ان اضطر الى تغيير مهنتي في هذه الفترة من عمري. فأنا مهندس كفوء».

لا شك في هذا! وشعرت باعصابها تتوتر. انه من النوع الذي لا يمكن ان يرضيه الا منتهى الكفاءة في نفسه وفي الآخرين.

ورن جرس الهاتف ممزقاً الصمت الذي ساد للحظة، وشعرت بنظراته لا تحيد عنها وهو يتناول سماعة الهاتف.

اثناء المكالمة شردت نظرات سارة تاركة وجهه المتبرم لتحط على رفوف المكتب المحيطة بالحجرة، ثم لتستقر على قطعة الخشب الكبيرة التي راحت تحترق في المدفأة الحجرية الضخمة. ولاحظت سارة ان ارض القاعة المصنوعة من اخشاب السنديان كانت مكسوة بسجادة جميلة باهتة الألوان. واحاطت بالمدفأة من جانبيها كنبتان جلديتان. وتخيلت سارة الراحة والدفء اللذين لا بد ان يشعر بهما المرء في هذه الغرفة في فصل الشتاء والستائر الثقيلة مسدلة لتخفف صقيع الرياح الاطلسية العنيفة.

لا شك ان لوخ غويل تنطوي على كثير من الاغراءات التي من شأنها ان تجذب اي رجل. ما هو القرار الذي سيتخذه هيو بشأن هذا المكان يا ترى؟

وعادت سارة بنظراتها الى وجهه الأسمر وقد ادهشها اهتمامها الذي ما كان كله نابعاً من قلقها على بيدي وكاتي. واحست بفضولها يكاد يطفو الى السطح فوبخت نفسها بصرامة متذكرة بأنها يجب الا تسمح لافكارها بالطواف حوله، وخصوصاً ان المعرفة بينهما لم تتعد فترة وجيزة.

«كان المتحدث هو الرجل الذي تعشيت معه البارحة».

قال واضعاً سماعة الهاتف بغتة قبل ان يعود الى اوراق. ثم رفع نظراته عنها وقال عاقد الحاجبين بصوت حاد:

«يريد ان يراني بعد الغداء اليوم من اجل البحث في امر طارىء. ولهذا فإنه من الأفضل ان نتابع العمل الآن متناسين كل ما عداه».
شعرت سارة في الأيام التي تلت وكأنها قد لصقت بكرسيها في المكتب، وان حياتها كلها كانت تدور حول الآلة الكاتبة. ولما لم تغفل من هيو فريزر بادرة تعبر عن رضاه بجهدها او عدمه فقد واست نفسها بأنه، على الأقل، لم يلجأ الى الشكوى. وكان يملي عليها مراسلاته في الصباح ثم يتركها بعد ان يصدر سيلاً من الارشادات. وبعد الغداء كانت سارة تقوم بالترتيب والتنسيق حتى اذا ما حان موعد تناول الشاي كان معظم العمل قد انتهى ولم يتبق الا انتظار توقيعه على الرسائل التي طبعتها. احياناً، وهي في طريقها الى غرفتها في الليل، كانت تجد النور ما يزال يتسرب من تحت باب المكتبة، ولكنه لم يلجأ الى طلب مساعدتها في مثل هذه الأوقات المتأخرة. اما امسياتها فكانت سارة تقضيها غالباً في القراءة او مساعدة بيدي التي كانت بين الحين والآخر تشكو من آلام الروماتيزم المبرحة. ووجدت سارة في الاستماع الى بيدي، التي كانت تملك ذخيرة حية من القصص حول طفولتها والجزيرة، مكافأة على كل المساعدات التي كانت تقدمها لها.

«يجب ان تحاولي الخروج اكثر».

قالت بيدي بحدة وقد انتهت لتوها من سرد حكاية طويلة لاحظت خلالها اصفرار وجه سارة بشيء من القلق.

«ان الأمسيات لطيفة في هذا الفصل. اذهبي للمشي احياناً بدلاً من ان تجلسي برفقة عجوز مثلي يا آنسة سارة».

الا ان سارة لم تحاول ان تعود الى البحر بعد مغامرتها الأخيرة. ولو سئلت عن السبب لما عرفت الجواب. واستعاضت عن البحر بمحاولة اكتشاف القلعة، ودراسة اسلوبها المعماري القديم باهتمام متزايد، على الرغم من جهلها بمثل هذا الموضوع. واتاح لها تجوالها فرصة التعرف على بعض الأفراد الآخرين الذين يعملون في المزرعة.

«انني اخرج احياناً». قالت وهي ترمق بيدي بنظرة مبتسمة. «ولكن هنالك الكثير مما يشغلني هنا».

«انا ادرك ذلك!»

وازدادت تقطيبة بيدي وضوحاً بدلاً من ان تختفي كما املت سارة،

وتابعت:

«ان السيد هيو يؤمن بالعمل الشاق بدون شك. ولكن عمه كان يتهرب من الاهتمام بمراسلاته كلما اتيحت له الفرصة، ولهذا خلف وراءه الكثير من الفوضى. وقد عانى محاسبه مصاعب جمة اثناء حياته، ولم تنفعه الشكوى ولا الوعود الكثيرة بتحسين الأمور. اما السيد هيو فهو على نقيض عمه تماماً. ولا شك انه سيستطيع تنظيم الأمور قريباً...».

«ان المستقبل هو الذي يثير قلقي، كما سبق أن ذكرت لك. ففي عمري هذا لا يألف المرء التغيير الا بصعوبة».

عندما نهضت سارة لتصعد الى غرفتها لم يسعها الا ان تتساءل لماذا تصر بيدي على وضع ثقتها فيها. ولم تجد تفسيراً الا في احتمال ان تكون بيدي تخشى التحدث الى هيو بهذا الشأن شخصياً مما يجعلها تأمل بأن تستطيع بضع كلمات منها، بوصفها سكرتيرته، ان تجد حلاً لمشاكلها. ولكن بيدي يجب ان تدرك بأن نفوذ سارة لدى هيو قد لا يتعدى نفوذ اي شخص آخر يقيم هنا، هذا اذا لم يقل عنه. وشكت في ان يتجاوز شعور هيو بوجودها ساعات العمل اليومية في المكتب.

بعد مرور عدة ايام طلب هيو من سارة في الصباح ان ترافقه الى توبر مري. وكانت عندما تحدق من خلال زجاج النافذة بأسى، غير شاعرة بأنه كان يراقبها حتى قال بحيوية:

«سأذهب عصر اليوم الى توبر مري، واود ان تأتي معي. هذا امر».

ولم ترغب سارة في المناقشة، خصوصاً ان شمس آذار الساطعة كانت تثير الاغراء في النفس. ورقص على وجهها الجميل بريق من الفرح غير المتوقع على الرغم من ان عينيها راحتا تنظران الى اكوام المراسلات امامها بشيء من الشعور بالذنب.

تبعت نظراته نظراتها بصبر نافد:

«لقد استطعت ان تنجزي كمية كبيرة من العمل منذ ان التحقت بخدمتي، يا آنسة وينتون، ولكنني لا اتوقع منك ان تتابعي دون فرصة للراحة».

تمتمت سارة بالموافقة فتوجه الى الباب مبتسماً بشيء من الحدة وقال:

«سأراك بعد الغداء اذن».

٣- الاجنحة المضيئة.

ارتدت سارة ثيابها المؤلفة من تنورة صوفية أنيقة وقصيرة، وبلوزة زرقاء تنسجم معها لوناً. ومشطت شعرها الاشقر الى الوراء وتركته نصف مسدول، سعيدة بالحرية التي جعلها تشعر بها بالمقارنة مع الطريقة الرصينة التي اعتادت ان تصفّف بها شعرها من اجل العمل مؤخراً، ولمست بشرتها الصافية الملساء ببعض البودرة، ووضعت مسحة من احمر الشفاه الوردي على فمها الممتلىء. ثم هرعت هابطة الدرج.

اخذت سارة تراقب الطريق، وبدأ هيو الشرح:

«على ساحل «مل» يوجد قبر يدّعي السكان أنه قبر ابنة اللورد الين وقبر حبيبها سيد ألفا. وتزعم الاسطورة أنهما غرقا معاً وهما يحاولان ان يعبرا الوخ ناكيل على ظهر مركب. ومن المحتمل ان يكون الشاعر توماس كامبل قد سمع بهذه الحكاية عندما جاء للعمل هنا مدرساً عام ١٧٩٥».

«انني اذكر القصيدة».

وغامت عيناها وهي تنظر خلال النافذة الى المرتفعات الوعرة، وسرت الرعدة في جسدها.

«لا يبدو انّ شيئاً قد تغيّر هنا. وكأن القصة حدثت البارحة».

«ان جزيرة كهذه لتتحدّى الزمن. اذا نظرت الى ما بعد الفا لامكنك ان تري مزيداً من الجزر الصغيرة».

سرحت سارة بنظراتها الى تلك الجزر كالمسحورة. وبدت لها الجزر البنفسجية الباهتة، الرابضة في غياهب البحر على طول خط الافق باتجاه الغرب، وكأنها ترقد على حافة العالم. فغلبها الصمت وهي تتأمل روعة

المنظر. ان البقع المماثلة لهذا المكان هي التي تلهم الشعراء وتدفعهم الى كتابة قصائدهم.

«لقد احبَّ عمي هذه الجزر- جزر الهيبريديز. اذ كان رجلاً اسكوتلندياً يفيض قلبه بالحب العميق لمسقط رأسه. ولكنه من المؤسف انه لم يقبل على العمل بمثل هذه الحرارة».

لم تفت سارة لهجته الجافة، واحست للحظة بنفور شديد منه. قد يبدي اهتماماً بالماضي مردداً اساطيره الرومانتيكية، ولكنه لن يسمح لنفسه مطلقاً بان يتأثر بها الى حد كبير. فلا يوجد للاحلام سوى مكان ضئيل في نفسه.

«الم تقع ابداً تحت رحمة عواطفك؟».

سألت سارة بتهور وقد ثارت في مخيلتها صورة زعيم الفا المنكود، فحطت عليها نظراته بخفة.

«انت لا تتوقعين ان اجيبك على هذا السؤال يا سارة».

واعترتها موجة من الاضطراب الحار. ان «سارة» بلا شك افضل من «آنسة ويتون» ولكن مخاطبتها باسمها المجرد من شأنه ان يضع علاقتهما على صعيد آخر. واتسعت عيناها وهي تحدّق امامها مترددة. ان اسلوب حياتها الآمنة نسبياً حتى الآن لم يزودها بالمرونة الفكرية التي يمكن تكييفها بحيث تؤهلها لمجابهة رجل من هذا النوع. ولاول مرة في حياتها احست باضطراب في عواطفها بسببه رجل، وبعدم القدرة على العثور على الكلمات المناسبة.

وانحدرت اشعة الشمس مضيئة حاجب وجهه مما اسبل عليه انطباعاً بالحيوية الفائقة فسرّته سارة بالقسوة. ورماها بنظرة اخرى تومض بالشقاوة وكأنه على علم تام بقلة خبرتها، واجدا في ذلك مدعاة للتسلية.

«من الآن فصاعداً سأناديك «سارة» ان عبارة «آنسة ويتون» تستغرق وقتاً طويلاً».

«بالطبع. وآمل ان تحذو احذك حذوك عندما تأتي».

ومال الطريق نحو الظلال. وشعرت سارة بان الطريقة الرسمية التي تفوهت بها عباراتها الاخيرة قد بعثت التسلية في نفسه. فشعرت باعصابها تتوتر غيظاً، واستدارت اليه وعيناها تشتعلان.

«انت تحب اغاظتي».
«ان شيئاً فيك يستفز المرء. هناك الكثير الذي يمكن ذكره في مجال الاخذ بالثأر. ولكنك احياناً تردين الكيد بمثله».
«لا تنس انك رئيسي».
«ها... ها».
وابتسم ثانية وهو يراقب استياءها الواضح.
«لا تدعي امراً كهذا يحبط اندفاعاتك الطبيعية».
تخيلت سارة مدى السعادة التي ستشعر بها لو استطاعت توجيه صفعة الى وجهه. الا يستطيع اي شيء ان يخترق تحصينات سور هذا الاسلوب الواثق المصقول؟ انه يلعب بالالفاظ ناثراً اياها باستخفاف، وكأنه يتلذذ بالاضطراب الذي تثيره.
«هل سمعت عن اختك؟».
«نعم، هذا يذكرني!. وتلاشى مرحه بفجائية مزعجة. لقد خابرتني جيل بعد الغداء. ستصل غداً».
«انني اتلهف للقائها».
وعلى الرغم من تحفظاتها السابقة فقد غمر صوتها رنين الصدق. ان وجود جيل يشكل حاجزاً بينها وبين هذا الرجل الذي يتأرجح مزاجه كرقاص الساعة بين مشاعر الاعجاب بالذات وبين نوع من التسامح المزعج.
هزّ هيو كتفيه بلا مبالاة. بينما سرحت سارة بنظراتها عبر النافذة المفتوحة، محاولة ان توجه دفة افكارها نحو معابر اكثر سلامة. وسارت السيارة على طول الشاطىء الغربي نحو قرية برغ وخليج كالغري. وشرح هيو انهما باتباع الطريق يستطيعان ان يشاهدا بعض معالم الساحل قبل الوصول الى قرية توبرمري وكانت المناظر تتغيّر من مكان الى آخر. وبدت الارض قفراً، غير مأهولة، والمستنقعات اكثر جدباً وامتداداً.
شردت عينا سارة اللتان لاح فيهما بريق الاهتمام فوق اعشاب الخليج.
وفجأة دون تفكير، امسكت بذراعه بشدة مما جعل السيارة تحيد عن الطريق قبل ان يستطيع استعمال الفرامل.
«آسفة!».

قالت لاهثة وهي تشير الى طائر جثم بهدوء فوق عمود طويل.
«لم ار نسراً على هذا القرب من قبل».
«من المحتمل الا يكتب لك ان تري صقراً آخر اذا ما شرعت في الامساك بذراعي هكذا وانا اقود».
وتوقف بالسيارة الى جانب الطريق.
«اخشى ان تصيبك خيبة الامل فهذا الطائر صقر لا نسر».
ولكن سارة كانت في حالة من الاستغراق جعلتها لا تتلفظ الا باعتذار قصير.
«انا آسفة، اعني بشأن ذراعك. هل انت متأكد بانه صقر؟».
واستدارت لتمعن النظر في الطائر مرة اخرى وعيناها تفيضان بالحيرة. لاحظ هيو الشك في تعبيرها فقال بهزة من كتفيه موضحاً:
«انّ النسر طائر اضخم حجماً. وعندما يبسط جناحيه تبلغ المسافة بينهما اكثر من المتر. ولونه مثل لون الصقر بني غامق، الا ان رأسه ومؤخرة عنقه تتوجها كتلة من الريش البني الذهبي. اما الصقر كما ترين، فهو ابيض اللون من الاسفل. ان عدد الصقور في اراضي الهايلاند الغربية وويلز يفوق عددها في اي منطقة اخرى».
«الن يطير بعيداً؟».
سألت بصوت منخفض وانفاسها تخرج من حنجرتها بصعوبة. ولم تعرف فيما اذا كان السبب هو قرب هيو فريزر الشديد منها او مشاهدتها غير المتوقعة للصقر.
رفع هيو حاجبيه قليلاً وترك ذراعه تستند على المقعد خلفها بحيث لامست اصابعه كتفها، وكأنه لم يشعر بتسارع نبضاتها.
«لقد رأيت بعض الصقور تجلس بدون حراك ما يقارب الساعة. ولكن اذا ما رأى الصقر شيئاً يثير انتباهه فانه ينقض عليه بسرعة عظيمة. وهو يحب الارانب وما شابهها. انّ حراس الطرائد والاحراش لا يحبون الصقور لأنها في رأيهم تلتهم الطرائد التي عليهم حراستها، ولهذا فهم يقتلون عدداً كبيراً منها».
«الا تتمتع هذه الطيور الجميلة بحماية الحكومة؟».
«طبعاً! وأزاح يده وهو يتحرك في مقعده. ولكن القوانين لا تنفّذ

احياناً. ومن الصعب تطبيقها في هذه المناطق .
التي لا تشكل جنة للطيور كما يبدو».

«انظر!».

هتفت سارة بحركة سريعة من جسمها، وقد حلّ رنين الحماس محل الاسى في صوتها، وهي تلمح الصقر، الذي بدا وكأنه لم يقدر الاهتمام المنصب عليه، يفرد جناحيه ويحلق منساباً في الفضاء. وحبست سارة انفاسها وهي تتأمل روعة الطائر عندما مس شعاع من النور الساطع اسفل جناحيه مضيئاً ريشها المختلف الالوان.

لاحت ابتسامة خفيفة على فم هيو. واستقرت عيناه لوهلة على وجهها المضيء قربه قبل ان يستدير ليرى الطائر الكبير يحط على قمة صخرية في الاعالي.

«اذا كنت تهتمين بالطيور حقيقة، فلعله بوسعنا ان نخرج معاً يوماً ما ونذهب لمراقبة الطيور».

«عندما يتوفر لنا المزيد من الوقت».

قالت رافعة يدها لتحجب الشمس. واختفى الصقر عندما انعطف الطريق صاعداً. لا شك انّ مشاغله الكثيرة لن تتيح له ان يجد متسعاً من الوقت مطلقاً.

«الوقت. . . يبدو انني لا استطيع ان اجد ما يكفي منه يا سارة».

«اعتقد ان الامر كله يرجع الى ما يريده الانسان من الحياة. سيارة كهذه، مثلاً».

ولامست اناملها جلد مقعدها الوثير بتردد.

«قد تكونين على حق. وتبعت عيناه حركات اصابعها. ولكن سيارة الجاغوار هذه كانت لعمي. وقد رأيت انه من الافضل استعمالها اليوم، بدلاً من سيارتي».

داخل سارة الامتعاض اذ احسّت به يدير ملاحظتها المبهمة ضدّها. خصوصاً انها كانت على يقين بأنّ سيارته هو الشخصية لن تكون من النوع الرخيص.

«هل تحسنين القيادة يا سارة؟».

«نعم، أقود».

واستعادت سارة في ذهنها سيارتها الصغيرة التي قدمها لها والداها هدية بمناسبة عيد ميلادها الاخير.

«اسمح لك باستعارة هذه السيارة لو شعرت أن بوسعك قيادتها. سادعك تجربينها بعد تناول الشاي في العصر. ستعتادين عليها بسرعة».

تألقت عينا سارة ابتهاجاً، فقد كانت في ريعان الشباب، وعلى شيء من التهور تحت قناع السلبية التي ولدتها في نفسها احداث الاسابيع الاخيرة.

«الا تخشى ان اتصرّف بحماقة؟».

قالت وهي تبتسم بسعادة ابتسامة اشرق بها وجهها المفعم بالحيوية.

«لقد بدأت اظن بانك لن تفعلي هذا ابداً».

وتفحصها لوهلة متسلياً بمراقبتها، ملاحظاً التغيير الذي طرأ على قسماتها المتألقة.

«لعله سيكتب لنا ان نرى اليرقة تبزغ الى الوجود يوماً ما».

فعادت الى سارة جديتها على الفور. لماذا يجب ان يثبط ويحبط كل شيء. لعلها هي المخطئة لأنها سمحت لنفسها بأن تعبر عن سرور فاق الحدود بفكرة قيادة هذه السيارة. الاّ ان ملاحظته اصابت وتراً حساساً في اعماقها، رغبة صادقة في الحياة لم تستطع ان تحققها لعدّة اسابيع. وتراجعت سارة مذكرة نفسها بأن هيو، على الاغلب، في لجوئه الى استخدام اسلوب المداعبة معها انما يعاملها كأخته الصغرى جيل. وان جل ما يقصده هو ايقاعها في شباك مزاحه. ولهذا فان افضل خطة للدفاع هي التجاهل.

لزمت سارة الصمت محافظة على ابتسامتها بعناد اذ احست به ينتظر منها رداً لاذعاً. وداخلها ارتياح كبير عندما وجدت السيارة تقترب فجأة من قرية توبرمري.

بعد ان توقفت السيارة تركها هيو هازاً رأسه هزة مقتضبة. وبدا من الواضح انه طردها من ذهنه بالسهولة نفسها التي طرد بها حديثها الشائك. الاّ انه تذكر بأن يقول لها بانه سيقابلها فيما بعد لشرب الشاي.

وجدت سارة توبرمري بلدة صغيرة حلوة على الشاطىء الشمالي الشرقي للجزيرة. وتجوّلت سارة في البلدة سعيدة بحريتها، وقد شعرت

بالاسترخاء لاول مرة بعد عدّة ايام قضتها في صحبة الآلة الكاتبة.

شعرت سارة، رغم قصر المدة التي مضت على مغادرتها للقلعة، بأنّ الاحساس الخانق الذي قبض على قلبها بأصابعه الفولاذية بعد وفاة والديها قد اخذ يتلاشى. انها لن تفهم مطلقاً لماذا تقع مثل هذه الحوادث. ولكن حدّة المها الثاقب قد اخذت تختفي ليحل محلّها نوع من القبول بالمحتوم، اخف احتمالاً. وداخل سارة، واشعة الشمس الدافئة تغمرها، شعور براحة البال ظنت انه قد فارقها الى الابد.

ليت جين كانت هنا. يجب ان تكتب لها لتصف مشاعرها. فلولا جين لما كانت سارة في هذا المكان. وسارت باتجاه المرفأ. ووجدت افكارها تنتقل من جين الى جيمس كار الذي وقع في حب جين منذ سنوات عديدة. وكانت ام سارة تعتقد بان زواجاً بين جين وجيمس سيكون مثالياً. الاّ انّ جين عبّرت عن تردّدها دائماً. وبدون سبب واضح، شردت افكار سارة الى هيو فريزر.

وهزت كتفيها بصبر نافد. لماذا تعود افكارها دائماً اليه؟

قرّرت سارة، مصممة، ان تنسى فريزر لفترة من الوقت. وسارت متجولة في البلدة، ملازمة الشارع الرئيسي الذي كان يمتد بمحاذاة جدار المرفأ. وراحت تنظر الى البيوت، التي كانت من طراز القرن الثامن عشر، بجدرانها الحجرية المتعددة الالوان وسطوحها المائلة. وبدا كل شيء نظيفاً ولامعاً، ولاستغرابها، مهجوراً.

واحسّت بالنعاس الذي كان يحوم في الفضاء حولها يصيبها بالعدوى. فاستسلمت سارة له، متكئة على جدار المرفأ المنخفض، تاركة هواء البحر النقي يعبث بشعرها المصفف بعناية ويسري فوق بشرتها برقة. واحست بجفنيها يطبقان والدفء يغمرهما.

وعلى حين غرة مدفوعة بنوع من الحدس الحاد، انتفضت سارة واتجهت بنظراتها الى الطريق القريب منها. وشاهدت لدهشتها، الشاب الذي انقذ حقيبتها يوم وصولها الى الجزيرة يخرج من احد الأمكنة المواجهة للبحر. وطرفت بعينيها ثم نظرت مرة اخرى. انه الشاب الغريب الملتحي نفسه ويمكنها التعرف عليه في اي مكان.

بينما اخذت سارة تراقبه بدون ان يراها، حمل هو بعض صناديق المؤونة

في صندوق سيارته. انه ما يزال هنا اذن! لعله احد سكان الجزيرة، اولعله استأجر بيتاً هنا، مما يفسر حاجته لصناديق المؤونة هذه. علت جبين سارة تقطيبة عابسة بدون مبرر وراقبته يبتعد بسيارته. كان قد نظر باتجاهها نظرة عابرة بدون ان يلوح عليه ان يعرفها. هذا ليس غريباً فهما لم يتقابلا الاّ لمدة قصيرة. ولكن سارة وجدت تفسيرها صعباً على التصديق. وعادت الى المنظر تتأمله محتارة.

في طريق العودة ذكرت سارة مقابلتها لهذا الشاب امام هيو.

«اعتقد ان كثيراً من السياح يزورون جزيرة «مل» كل عام؟».

قالت بتردد، وتمنّت للحظتها لو انها لم تذكر شيئاً عن هذا الشاب لهيو لأنها خشيت ان يظن بها الفضول الشديد.

«هل يثير اهتمامك يا سارة؟».

«ليس الى حد كبير. انني استغرب فقط لماذا لم يتابع رحلته».

«لا تدعي الامر يزعجك. واختلط المكر بابتسامته القاسية. لا تنسي أنّ المجتمعات الصغيرة تولد الفضول. هل سبق لك ان عشت في بلدة صغيرة، يا سارة؟».

«ان الناس في المجتمعات الصغيرة يهتمون بالاخرين».

«ان في مقدورهم ايضاً ان يسببوا الاختناق».

اجابها بحدة.

«لا اظن ذلك!».

«اذن دعينا نتفق لا ان نختلف. قال متشدقاً. يبدو اننا نختلف حول مواضيع كثيرة».

لاحظت سارة في كلماته شيئاً من التبرم. وكأنه كان يكتشف، كارهاً، ضرورة ان يسلم بوجود انماط مختلفة للعيش. هل يجد يا ترى، الضغط المتواصل الذي تتطلبه حياة اكثر استقراراً مدعاة للغيظ الشديد؟ وهو الذي تعوّد على الاستمتاع بحريته وعلى التجول حول العالم. وعادت سارة بانتباهها الى ملاحظته الاخيرة.

«هل تجد انه امر غريب الاّ يكون بيننا اشياء كثيرة مشتركة؟».

«ها! وضحك دافعاً برأسه الداكن الى الوراء. ألم يذكر لك احد يا سارة، بأنّ الرجال والنساء لا يشتركون الاّ في القليل وأنّ العاطفة الوحيدة

التي تستطيع احياناً ان تسد الفجوة بينهم هي عاطفة خطيرة جداً؟».

ادارت سارة رأسها بسرعة. كان من الممكن ان تجيب بصراحة... لا. ولكن لأنها شعرت بأنه كان يطأ ارضاً محرمة عن عمد، فقد قررت ان تلتزم الصمت. وبالاضافة، لماذا يجب ان تعترف له بنقصان تجربتها؟ انه يملك من الصلف والاعتداد بالنفس ما سيجعله يرى في هذا مدعاة للتسلية.

«يجب ان تقدمي على المغامرة يوماً ما. قال ساخراً عندما استمرت على صمتها. الا انني لا انصحك بان تختاري سائحاً عابراً».

«لا تخش فلن افعل. بوسعي الانتظار حتى اعود الى لندن».

المهم الاّ اقع في حبك- ابتهلت سارة راجية. وشعرت بنظراته العابثة تعود الى وجهها وتتمهل فوق فمها الاعزل قبل ان تنحرف الى الطريق. وشعرت بنبضاتها تتسارع وكأنها تجري.

وعادت السخرية الى وجهه، وتمتم قائلاً:

«طبعاً! العاصمة العظيمة! ولكنك تحبين التظاهر بانك تستطيعين العيش بعيداً عنها».

وهز كتفيه بحركة لا مبالاة، وكأنه فقد الاهتمام بالحوار بينهما. وعاد للتركيز على القيادة. فشعرت سارة باعصابها المتوترة تسترخي تدريجياً.

سلكا في طريق عودتها الطريق المحاذي للشاطىء الشرقي الى سالن.

اتكأت سارة في مقعدها واغمضت عينيها نصف اغماضة. بينما اتجهت السيارة نحو المنعطف التالي.

«بماذا تفكرين؟».

وابتسم بتكاسل، مبدياً شكوكها في ان تكون افكاره في مكان آخر. وقبل ان تستطيع الاجابة ادار السيارة فجأة واوقفها. ثم قفز من الباب.

رأت سارة سيارة اخرى واقفة قريباً. سيارة طويلة وثيرة وقفت بجانبها فتاة طويلة سوداء الشعر. وبدا من الواضح انها كانت في ورطة. اذ راحت ترمق سيارتها بكآبة. ولكنها عندما لمحت هيو، اختفى عبوسها وحل محله تعبير بالدهشة والسرور.

«هيو! هتفت بحبور ثم عانقته. لم يخطر لي بال ان اجدك هنا!».

ضحك هيو. وراقبته سارة بفضول وهو يعانق الفتاة بخفة.

«انني سعيد برؤيتك للمرة الثانية يا بيث. ولكنني ظننت انك سافرت الى فرنسا».

وضمها اليه ثانية، بحنان، كما لاحظت سارة. وومضت فكرة في ذهنها وهي تتذكر ما قالته لها بيدي مساء وصولها الى القلعة عن احتمال زواج هيو بفتاة ذهبت في رحلة الى فرنسا. هل هي الفتاة نفسها ام لا؟

«لقد كنت هناك. وصلت البارحة فقط. وظننت انه من الافضل ان اخرج بسيارتي لانني اتركها معظم الوقت في الكاراج. ولكن يا لسوء الحظ، احدى العجلات تعطلت، ولهذا وقفت انتظر آملة ان يأتي شخص ما ليساعدني على استبدال العجلة، الاّ انني لم اتوقع ان تحضر انت».

ابتسم هيو بتكاسل، وانحنى ليفحص الدولاب.

«انني دائماً اعرف متى اظهر».

قال عابثاً. ولاحظت سارة لمعان اسنانه البيضاء الناصعة. وبدا لها، اذ اشرق وجهه ضاحكاً بما ابرز انحناءة رأسه المتكبر، كقرصان اسمر. ولم يخامرها الشك مطلقاً في انه يستطيع التصرف كقرصان ايضاً.

لاح لسارة انّ عيني بيث لم يفارقا وجه هيو بتاتاً وهي تسأله اين كان.

«في توبرمري، لحسن حظك. وأشار بيده باهمال الى حيث جلست سارة. مع سكرتيرتي. ثم قال معرفاً. سارة وينتون، اقدم لك بيث اسكويث».

«سكرتيرة؟».

وادارت بيث رأسها لتستقر بنظراتها الدهشة على سارة التي كانت ما تزال جالسة في السيارة. وبدا واضحاً انها لم تشعر بوجودها قبلاً.

«لماذا بحق السماء، تحتاج الى سكرتيرة في لوخ غويل؟».

قالت بلهجة ثاقبة باردة وهي تستدير غاضبة لتواجه هيو الذي ازاح سترته استعداداً لتغيير العجلة.

«قد تستغربين!».

قال بلهجة متهكمة، وحطّت نظراته الساخرة للحظة وجيزة على وجه سارة الذي احمرّ غضباً تحت وطأة نظرات بيث العدائية.

«كان بالامكان ان اساعدك انا».

ولم تسمع رد هيو، ولكن بيث بدت مقتنعة باجابته اذ استرخت

عضلات وجهها وركعت على ركبتيها بجانب هيو تتبادل معه الحديث. . . كما يلوح.

علا العبوس وجه سارة. لا شك ان بيث هي المرأة التي لمحت بيدي بان هيو قد يتزوجها في المستقبل. واعتصر قلبها شعور بالانقباض سارعت لطرده.

وصلت جيل في اليوم التالي. كان الصباح قد بدأ بداية سيئة بالنسبة الى سارة عندما ايقظتها كاتي قبل الساعة السابعة لتخبرها ان بيدي اضطرت للزوم الفراش بسبب مرضها، مما دفع هيو الى ان يرسلها الى سارة ليطلب منها القيام باعداد الفطور.

«لقد عاودتها آلامها».

شرحت كاتي بينما كانت سارة تهبط الدرج بسرعة.

«في العادة عندما لا تستطيع النهوض من فراشها اقوم انا باعداد الفطور. ولكنني عندما قمت بهذه المهمة في المرة الاخيرة سكبت ابريق الشاي على يدي وحرقت الخبز. وكانت النتيجة ان راح السيد فريزر العجوز يشتكي من سوء الهضم طول النهار. ما كنت احب ان ازعجك، يا آنسة سارة، ولكن السيد هيو قال بانه متأكد من انك طباخة ماهرة».

وماذا لو كنت؟ تساءلت سارة بغيظ وهي ترتدي مريولاً من مرايل بيدي الكبيرة البيضاء. انه لا يتوقع منها ان تقوم بجميع الاعباء؟ لا شك انها ستسمعه قريباً يهمس، معلقاً على الروماتيزم الذي تعاني منه بيدي: «انا واثق انك بخبرتك في التمريض يا سارة. . .».

ورفضت سارة ان تعترف بان سوء المزاج الذي كانت تعاني منه هذا الصباح قد يكون نتيجة لتجربة الليلة الفائتة. فبعد ان تركا بيث بدا واضحاً انه نسي وعده بشأن السماح لها باستعمال سيارته أو أن السبب، يا ترى، هو ان لقاءها ببيث البارحة قد افسد امسيتها. خصوصاً أن الاخيرة قد افلحت بالتلميح لسارة، عن طريق التفوه ببعض الكلمات الباردة، بان وجودها في لوخ غويل غير مرغوب فيه. ولكن من المحتمل ان هيو الذي كان مشغولاً بتركيب الدولاب عندئذ لم يسمع هذه الكلمات.

سارعت سارة الى سكب بعض الشاي. ورتبت بعض قطع البسكويت بذوق فوق صحن مزين.

«سآخذ هذه الصينية الى بيدي بنفسي. قالت لكاتي التي راحت تحوم حولها. لعلني استطيع ان اساعدها قليلاً قبل ان اتناول فطوري».

اشتكت بيدي لسارة من آلام مبرحة في الورك. وقالت ان الحبوب التي وصفها لها الطبيب لم تناسبها مما دفعها لأن تلقي بها في المشملة. وبدت سعيدة بالشاي، الا انها انبت سارة على تحملها هذا العبء.

«اظن ان الاسبرين ينفع في مثل هذه الحالات».

قالت وهي تخرج حبتين من زجاجة وجدتها في المطبخ. ولدهشتها ابتلعت بيدي الحبتين من دون معارضة، تحت مراقبة سارة التي سجلت في ذهنها ضرورة ان تتحدث الى الطبيب عندما يأتي لزيارة بيدي. ولما حاولت الاخيرة ان تغادر فراشها قالت لها سارة بحزم:

«ان ما تحتاجين اليه الآن هو الدفء والراحة. ثم ان هنالك فتاة اخرى في البيت بالاضافة الي والى جيل التي ستصل اليوم. من المؤكد اننا سنستطيع تدبير الامور فيما بيننا».

«والآنسة جيل؟» وغمر الاستياء عيني بيدي الزرقاوين بلون البحر. «ماذا سيقول السيد هيو اذا ما لزمت الفراش؟».

اجابت سارة بلهجة لاذعة وهي تغلق الباب.

«شيئاً لا يمكن مقارنته بما سأقوله انا، لو غادرت الفراش».

وفكرت سارة بالسيد هيو، وهي في طريقها الى المطبخ. لا شك أنَّ بيدي ستقوى على مغادرة الفراش خلال يومين او ثلاثة. ولكن اذا ما ارادها هيو ان تقوم بالطبخ فعليه ان يحاول تدبير اموره في المكتب من دون مساعدتها. اذ ليس باستطاعتها ان تقوم بالمهمتين معاً. ثم انه لن يؤذيه اكتشاف انها ليست سهلة الانقياد بالدرجة التي يتخيلها.

وجدت هيو في انتظارها في المطبخ، واقفاً قرب النافذة ينظر الى الساحة، وقد كادت كتفاه العريضتان تملآن النافذة الطويلة، فغمر سارة شعور مثير لجمها عن الكلام لحظة. واستدار هيو عندما سمع خطواتها، وحطت نظراته على وجهها اليافع الصافي.

«صباح الخير يا سارة. اظن انه من الاريح لك ان اتناول الفطور معك هنا».

كم تبدو كلماته حافلة بالمودة! ولكن سارة ليست بالفتاة التي تخدعها

مثل هذه اللهجة التي تخفي في طياتها نفاد الصبر الذي يتصف به الرجال وبالكاد تستطيع ابتسامته ان تخفي عدم ترحيبه بهذا التغيير في الروتين اليومي. واومأت سارة براسها بفتور وهي تضع بعض شرائح اللحم تحت المشواة. وسألته بلهجة حادة قبل ان تتناول المقلاة:

«كم بيضة تريد؟».

واتسعت ابتسامة هيو اللاهية وهو يقترب ليقف بجانبها.

«ان مزاجنا لا يبدو على ما يرام هذا الصباح، اليس كذلك؟».

ونظر اليها من فوق انفه المستقيم بعينين تتألقان بالخبث.

«هل انت مغتاظة مني لانني طلبت منك ان تعدي الفطور؟».

ضحكت سارة على الرغم منها، وتلاشى غضبها.

«في الحقيقة لا. وقابلته عيناها الزرقاوان بجرأة. ولكنك تحب اعطاء الاوامر».

«هل يزعجك ان تمدي يد العون يا سارة؟».

«لا، اذا ما وجه الي الطلب بالاسلوب الصحيح».

وادركت بان تصرفها كان طفولياً، ولكن خصلة من العناد في طبعها جعلتها تصر على مسلكها مع علمها بانه انما كان يحاول استثارتها عن عمد. وابتسم هيو:

«لقد اعتدت على اعطاء الاوامر يا سارة. حتى انني كدت انسى كيف أصوغ طلباتي بالاسلوب الصحيح. لعلك تستطيعين ان تعلّميني».

كان ما يزال واقفاً بجانبها مهيمنا قرب الموقد. يبدو انه كان يمارس رياضته الصباحية على ظهر حصانه.

«لن يكون بوسعي ان افعل كل شيء».

وكسرت بيضة، من دون احتراس في المقلاة محاولة ان تستعيد تمالكها لنفسها.

«وماذا بشأن المكتب؟».

ولكن سارة لم تربح هذه الجولة ايضاً.

«استطيع ان اطلب المساعدة من بيث عندما تأتي هذا المساء».

قال بلطف وعيناه تستقران على بياض عنقها المصقول فوق فتحة قميصها.

«لقد عرضت المساعدة».

وضعت سارة الزبدة فوق البيض باسرع مما يجب، فتطايرت الرشاشات الحارة بملامسة ذراعها مما جعلها تطلق صيحة الم قصيرة قبل ان تسحب ذراعها بسرعة، رامية الملعقة من يدها. وغامت عيناها بدموع اليأس وهي تحاول ان تغطي المساحة المحروقة بيدها.

اطلق هيو صيحة مختنقة.

«دعيني ارى ما اصابك! لقد ظننت ان كاني هي الوحيدة المهملة هنا. كم مرة كتب علي ان انقذك يا ترى؟».

والقى نظرة سريعة على وجهها المصدوم. ثم توجه الى احدى الخزائن وعاد حاملاً انبوبة مرهم غطى به الحرق. وكانت هذه هي المرة الثانية التي أشار فيها الى مغامرتها فوق الصخور منذ حدوثها.

«هذا يكفي!».

صرخت سارة بحدة اذ افرغ محتويات الانبوب فوق يدها. وآلمتها لسعة ملمس اصابعه اكثر من لسعة الحرق. واحست وهي ترتجف بانها عزلاء تجاهه. وتمتمت بشيء من الخجل وهي تسحب ذراعها:

«آسفة. ان الحرق بسيط. وهو لا يستدعي الخوف الذي اصابني».

وشمت رائحة شيء يحترق فسارعت مبتعدة لتنقذ محتويات المقلاة.

«اظن انه يمكنني ان اساعدك في المكتب بعد الغداء، بعد انتهائي من العمل هنا. كاني تستطيع تصريف امور المطبخ بمفردها لمدة ساعة او ساعتين».

«اذن، لن نحتاج الى بيث كما يبدو لي».

قال معلقاً بدماثة، ورماها بنظرة متأملة من عينيه اللتين راحتا تبحثان عن ضمادة في صندوق الاسعاف.

«ليس بالضرورة، ولكن افعل ما تشاء».

وعضت على شفتها باسنانها البيضاء المصفوفة، وهي تمد يدها اليه مطيعة، فوضع فوقها الضمادة بحزم وبراعة. ووشت حركة اصابعه الماهرة بخبرة لا بأس بها. كانت ذراعها لا تزال تؤلمها، ولكنها احست بالدماء تعود الى وجنتيها. ولم تعرف لماذا لم تستطع ان تحبذ فكرة قدوم بيث لمساعدة هيو. وخالجها الشعور بانه قد ضمن هذا كما اوحت به الاختلاجة الغريبة

التي طافت بفمه.

وضغط هيو على الضمادة ضغطة خفيفة مقصودة.

«عندما تنتهين من تنسيق الامور داخل رأسك الجذاب هذا، هل يمكننا ان نتناول الفطور؟ فنجان من الشاي الحار وحبتان من هذه الزجاجة ستكفل لك الشفاء العاجل».

ومد لها يده بزجاجة الاسبرين التي كانت قد وضعتها على المائدة بعد عودتها من غرفة بيدي.

«شكراً».

صممت سارة الا تعطي نفسها فرصة للعبوس. وبعد الفطور انغمست في العمل بعيداً عن هيو. وبينما كانت تعد طعام الغداء راحت تفكر بالتشعبات والتعقيدات التي يتطلبها العمل في بيت كبير. ان الجو الذي تخلقه ظروف مثل هذا العمل كفيلة بان تولد جواً من الالفة لا يجده المرء في المكاتب الصغيرة. واحست سارة بخطر ان تحول بينها مثل هذه الالفة وبين الاحتفاظ بعلاقتها مع رئيسها على المستوى الرسمي. ولاحظت انها قد بدأت تلاقي صعوبة متزايدة في التفكير بهيو كرئيس فقط. وهي لم تنس كيف انها كانت على وشك ان تضع رأسها على كتفه هذا الصباح. لعله من حسن حظها انه سرعان ما فقد الاهتمام بما اصاب يدها واستسلم لعدم اللامبالاة.

وجدت سارة بعض الوقت للتحدث الى طبيب العائلة ايان ماكنزي، بعد ان عثرت على بطاقته بعد بحث طويل في خزانة في القاعة. يجب ان تتذكر بان تطلب من هيو الحصول على دليل للهاتف نظراً لعدم وجود دليل في البيت.

بعد العثور على الرقم، اتصلت بالعيادة وتحدثت الى الطبيب بنفسها. نعم. بامكانه ان يأتي لزيارة بيدي فيما بعد. وسيجلب معه بعض الحبوب.

«ان ايجاد العلاج المناسب يعتمد على الخطأ والتجربة».

قال متنهداً عندما ذكرت له ما فعلته بيدي بالحبوب التي وصفها سابقاً. ولما اقترحت عليه بوجل ان لزوم الفراش قد يشكل العلاج الافضل، قهقه بصوت عال قائلاً قبل ان يضع سماعة الهاتف:

«جربي ان تحاولي فقط اقناعها بلزوم السرير!».

رأت سارة وهي تساعد كاتي على اعداد غرفة جيل بان يومها هذا كان مزعجاً منذ بدايته. واصغت الى كاتي تسر اليها بان صديقها لن يأتي لزيارتها في نهاية عطلة الاسبوع.

«على كل، لقد بدأت امل من صحبته».

قالت غاضبة وهي تمسح الغبار بحيوية زائدة جعلت الخشب يلتمع

«انه يعمل على الشاطىء المقابل في احد الفنادق المشغولة جداً، مما لا يتيح له فرصة للخروج».

«اذا استمر على هذا المنوال فسأبحث عن شخص آخر».

أثارت لهجة التهديد في كلماتها ابتسامة سارة. وبدا لها وهي تضع اللمسة الاخيرة على غطاء السرير الساتان بأن كاتي ايضاً تعاني من سوء الحظ هذا اليوم. ولكن الفكرة لم تبعث السلوى في نفسها بل يأساً متزايداً.

٤- خطوات نحو اللهب

بعد الغداء بقليل، توجه هيو الى سالن ليقابل اخته في المطار. وكانت سارة في غرفتها بعد الظهر عندما سمعت طرقة سريعة على بابها. وقبل ان تجد الوقت لتطلب من الطارق الدخول، دخلت الغرفة فتاة شقراء صغيرة لها ابتسامة مفعمة بالحيوية. وتقوس حاجبا الفتاة وهي تسأل:

«اظن انك سكرتيرة هيو الجديدة. لقد جئت لكي اشاهدك».

وتوقفت عن الكلام بغتة لتحدق في سارة بعينين واسعتين:

«يجب ان اعترف بأنني لم اتوقع شخصاً مثلك. اين عثر عليك؟».

«في الحقيقة لم يعثر هيو علي. لقد أرسلوني اليه».

ردّت سارة بثبات، ملقية على الفتاة نظرة سريعة، وعرفت بحدسها بأنّ هذه الفتاة لا بد ان تكون جيل، على الرغم من انه لم يكن هنالك شبه بين الاثنين فيما عدا اشتراكهما، على ما يبدو، في خصلة العجرفة. ولاح لسارة أنّ هذا المزيج من التكبر وعدم الكلفة الذي تتصف به الاثنتان مثير للاضطراب، وهو يبرهن، اكثر من اي شيء آخر على انهما من سلالة عائلة فريزر. وانتظرت سارة بصمت بينما راحت جيل تفكر فيما قالته لها.

«ارسلوك؟».

سألت جيل بصوت رفيع مفعم بالفضول اذ لم تفتها قامة سارة الرشيقة وتقاطيعها الجميلة:

«ماذا تعنين بحق السماء؟ من ارسلك؟».

«لقد طلب السيد فريزر من محاميه أن يرسل له سكرتيرة. وكانت النتيجة ان وجدت نفسي هنا».

وابتسمت سارة ابتسامة خفيفة.

«آه، فهمت».

ولكن التعبير المرتسم على وجهها وشى بوضوح بأنها لم تفهم. ولازمها الشك للحظة وهي تتأمل بشرة سارة المصقولة. وفجأة، وكأنها قررت ان تغير من أسلوبها، مدّت يدها الى سارة مصافحة وموضحة دون ان تدعو الحاجة الى ذلك:

«انا جيل. آسفة اذا كنت تصرّفت ببعض الوقاحة. ولكن اللوم يقع على هيو لانه لا يشرح لي اي شيء كما يجب. ويستعمل معي دائماً الاسلوب الخاطىء».

اذن لقد ذكر لها شيئاً عن الموضوع! واجابت سارة متسائلة، متعمدة ان تنطق الكلمات باستخفاف لكي تكتم استياءها:

«اخشى الّا استطيع متابعة افكارك؟».

لكن جيل لم تجب بسرعة، وابتسمت برضى كالقطة وهي تكور جسمها لتستقر فوق الكنبة. وبدا واضحاً انها احست باضطراب سارة وانها حباً في العناد لم تجد ما يدعو الى العجلة لتهدئة خاطرها.

«لقد ذكر لي - قالت بابتسامة - بأنّ وجودك هنا هو من اجلي من بعض النواحي. ويجب ان تعرفي انه ليس من طبعه الاهتمام بي، ولهذا اتساءل لماذا يأخذ على عاتقه فجأة امر الاعتناء بي؟ بل لماذا يسمح لنفسه بان يظن بأنني بحاجة الى حارس أو مربية؟ لذلك لا تستغربي اذ تجدينني اشك في تصرفاته. من المؤكد انه ليس هنالك من سبب يجعله يتحمل كل هذا الازعاج من اجلي».

«اخشى انك اسأت تفسير كلماتي».

قالت سارة وهي تجلس على طرف السرير، وقد داخلها شيء من الارتياح. يبدو واضحاً أنّ جيل قد خلطت الامور. كان من الافضل الّا يذكر هيو شيئاً امامها. وحلّت محلّ استيائها السابق موجة من الغيظ. انّ الرجال نادراً ما يبرهنون على البراعة والذكاء في تصرفاتهم تجاه اخواتهم الأصغر سناً.

«انّ سبب وجودي هنا في الحقيقة هو مساعدة اخيك لكي ينظم الامور المتعلقة بميراث عمك. لا اتوقع ان ابقى هنا مدة طويلة. ولهذا ليس هنالك

ما يدعو لقلقك».

على عكس ما أملت سارة، لم يكن من السهل تهدئة مخاوف جيل التي استطردت وعيناها تضيقان، بتعبير ماكر:

«انّ اسبابك قد تكون واضحة. وعبس وجهها. ولكن ماذا بشأن هيو؟».

ترددت سارة قبل ان تجيب. ان جيل لم تلمح بعد باية طريقة الى صديقها الذي سبب كل هذا الازعاج لاخيها. ولكن بدا من الواضح انها كانت تفكر فيه.

حسناً! انها لا تنوي ان تتدخل في اية خلافات عائلية إنْ أمكنها ان تتجنّب ذلك. ولن تشير الى صديق جيل الاّ اذا ذكرته امامها. من حسن الحظ انّ هيو لا يريدها ان تتحدّث عنه، لأن خطته لا يمكن ان تنجح الاّ اذا توفرت السرية الكافية. واحست سارة بالخجل من نفسها للطريقة الحاذقة التي راحت تزن الامور بها، فسارعت للاجابة على سؤال جيل بحرارة ما كانت لتظهرها لو كان الموقف مختلفاً.

«الا تعتقدين بانك تبالغين قليلاً يا جيل؟ ان السيد فريزر ذكر لي بانه يشعر بالمسؤولية تجاهك، خصوصاً بعد مرضك وبسبب سفر والدتك الى امريكا».

«وعندما تعود سيسلمني لها كطرد بريدي، ملفوفة بعناية وسليمة من العطب. مسكين هيو! اظن انني استطيع تخيّل الصورة!».

وضحكت جيل وعيناها تومضان سروراً:

«انه يكره القيود من اي نوع. وأمي تقول انه قد امتنع عن الزواج لهذا السبب فهو لن يسمح لنفسه ان يسرح في العالم طولاً وعرضاً تاركاً زوجته اليافعة وحدها في المنزل».

قفزت سارة الى قدميها بقلق، وشعرت بنظرات جيل تتفحصها بامعان وكأنها لم تقتنع بعد. ان جيل مكارة! قد تكون فتاة مدلعة، ولكنها تبدو عاقلة ما فيه الكفاية. وعلى علم بما تريد، على عكس سارة. ثم انها على ما يظهر، من النوع الذي لا يتورع عن اللجوء الى الاساليب الملتوية اذا دعت الحاجة، ولهذا فان افضل خطة للدفاع الآن هي التراجع بلا شك.

«يجب ان اسرع!. هتفت ملقية نظرة سريعة على ساعتها. اعذريني فقد

كدت انسى بيدي. انها في السرير، وعليّ ان اذهب اليها لاتبيّن حالتها».

«آه، هذا يذكرني...».

تثاءبت جيل وهي تفرد جسمها، ومطت ذراعيها قائلة:

«لقد اخبرني هيو بان الدكتور ماكنزي يريد التحدّث اليك. وهذا بالحقيقة هو سبب قدومي الى هنا».

توقفت سارة وهي في منتصف الطريق الى الباب، وادارت رأسها المضيء لتلقي نظرة مغتاظة على جيل.

«كان بوسعك ان تخبريني قبل الآن!».

«آسفة لقد نسيت. قالت جيل بهزة لا مبالاة من كتفيها. لا تنزعجي فهو شخص عزيز عجوز. انا واثقة انه لن يتضايق من الانتظار، خصوصاً عندما يجد الشخص الذي اضطره للانتظار فتاة مثلك».

هرعت سارة تهبط الدرج دون ان تتمهل لتسمع المزيد. انها تعرف هذه النعوت التي يستعملها الناس عند الاشارة الى اطبائهم حق المعرفة، مثل «عزيز، ولطيف، وعجوز».

عندما وصلت سارة الى القاعة وجدت هيو يتحدث الى رجل اصغر منه سناً فخمنت بان يكون احد جيرانه. وغمرها الاستياء لانها لم تجد اثراً لاي طبيب.

استدار هيو فسارت نحو الرجلين فوق السجادة الثمينة شاعرة بنظراته تنحدر على وجهها القلق، ولمحت شبح ابتسامة على فمه الصارم.

«اظن انه من الافضل ان اقدمك الى الدكتور ماكنزي يا سارة، لانه يبدو انك اخذت على عاتقك امر الاعتناء ببيدي».

اوشكت سارة ان ترد بالطريقة الجافة نفسها لولا انها تمالكت نفسها فهذه هي طريقته في التعبير! وتقدمت الى الطبيب وصافحته وقد غمرتها الدهشة. لعل جيل، بالفعل، ترى الدكتور ماكنزي رجلاً متقدماً بالسن، ولكن سارة شكت في هذا. لم يكن الطبيب جميل الطلعة، الاّ ان وجهه كان يشع نوعاً من الجاذبية البسيطة غير المتكلفة، وكان اصغر سناً من هيو، واشقر الشعر مثلها.

احست سارة في نظرات الطبيب اليها ببريق الاهتمام. ولم يكن في اعجابه، الذي بدا واضحاً في عينيه الرماديتين، اي رياء.

«اذن انت هي الآنسة التي تريد ان تجبر بيدي على التزام السرير؟».

قال مبتسماً وهو يضغط بحزم على اصابعها النحيلة، وعيناه شاخصتان الى وجنتيها المحمرتين.

ما كان بامكان سارة ان تحزر بان مسلك الطبيب ماكنزي تجاهها لم يكن عادياً بالنسبة اليه. ولكن وجدت اعجابه الصريح بها مشجعاً ومثيرا بعد نهار طويل ممل. وبغريزتها الانثوية، اهملت تقطيبة هيو الخفيفة، مستجيبة لابتسامة الطبيب بابتسامة مماثلة فقالت:

«ساجرب».

وسحبت اصابعها من يده باحتراس، سائلة فيما اذا كان قد ترك بعض الحبوب لكي تستعملها بيدي.

«ان بيدي لا تستطيع ان تتذكر اسم الحبوب التي وصفتها لها».

«معي بعض الحبوب في السيارة. سأعطيك بعضها اذا ما رافقتني».

وتابع وعيناه لا تفارقان وجهها: سيكون مفعولها افضل بالطبع اذا استطعت ان تحثيها على البقاء في السرير».

«ساحاول».

ردت سارة، وشعرت فجأة بهيو خلفها يراقبها باستهزاء. فتظاهرت بعدم الاهتمام وابتسمت للطبيب ثانية. لقد اصبحت خبيرة بخصلة عدم التسامح في طبع هيو، لكنها لم تستطع ان تدرأ غصة الالم مما اثار الاستياء في نفسها. واعترتها الدهشة والغيظ معاً عندما تدخل هيو في الحديث قائلا بصوت جاف:

«يبدو من الواضح انك لست مستعجلاً يا ايان، ولهذا ارجوك ان تفحص ذراع سارة قبل ذهابك. لقد سكبت بعض السمن الحار عليها في الصباح اذ انها ليست دائماً بمثل الكفاءة التي تبدو عليها».

اشتعلت عينا سارة غضباً وهي تجابه نظراته الساخرة. صحيح ان ذراعها تؤلمها، ولكن الالم ليس حاداً. وتمنت بارتباك لو انه لم يذكرها. وحولت نظراتها عنه مبتسمة لايان، محاولة ان تستعيد بعض توازنها.

«لا داعي لان تزعج نفسك».

احتجت سارة عندما همّ الطبيب برفع الضمادة، متجاهلة عبوسه الفجائي.

«لقد فحصت يدي بنفسي بعد الغداء، ووجدتها في حالة جيدة».

«كيف عرفت؟».

وازداد وجه ايان عبوساً وتابع نافد الصبر:

«هل لديك خبرة في التمريض؟ حتى الحروق الصغيرة يمكن ان تكون مزعجة».

«لكنني رأيت العديد من الحروق!».

اجابت سارة وقد وخزتها لهجة التأنيب في صوته، سامحة لانفعالها ان يغلب حذرها.

«كنت اعمل مساعدة لوالدي الذي كان طبيباً ايضاً».

افلت ايان ذراعها كارهاً، ولم يبد عليه الاقتناع التام.

«حسناً! كما تشائين. واستقرت نظراته الثاقبة على وجهها: ومع هذا فسأعطيك مرهماً قد تحبين ان تجربيه عندما تذهب الى السيارة لكي تجلبي حبوب بيدي».

ثم اومأ ايماءة مقتضبة لهيو، وسار عبر الباب المفتوح.

لما رجعت سارة بعد عشر دقائق، وجدت ان هيو قد غادر القاعة، ولم تجد له اثراً في المكتبة عندما ذهبت لترى ما اذا كان بحاجة الى مساعدة عاجلة. وكان ايان قد اصرّ على ان تضع ضمادة مناسبة على ذراعها مما استغرق بعض الوقت. ولم تشأ سارة ان تعترف حتى لنفسها، بانها اختارت ان تتلكأ مع ايان عن قصد آملة ان تتجنّب هيو وأية ملاحظات لاذعة قد يبديها حول مسلكها.

اما ما تبقى من فترة ما بعد الظهر فقد قضته سارة في المطبخ متحملة مضايقات جيل التي راحت لتوها تشكو من الملل. وراحت جيل تتبادل الضحكات مع كاتي التي كانت تعرفها جيداً، ثم اخذت تكيد سارة بشأن ايان ماكنزي:

«رأيتكما متشابكي اليدين في القاعة. ماذا كنتما تناقشان بهذه الجدية؟ ليس روماتيزم بيدي بالطبع؟ لقد ذكرت لهيو بعدها ان ايان بدا وقد افتتن بك».

«قلت لي بان الدكتور ماكنزي رجل مسن وطيّب!».

وضغطت سارة على الكلمتين الاخيرتين بوضوح.

قهقهت جيل دون ان تبدو عليها علامات التوبة:
«حسناً، اليست هذه هي الحقيقة؟ كان عمي ديفيد يقول بأن ايان ولد عجوزاً- عجوزاً مستبداً! انه لا يصف لي الآ المحاضرات!».
حاولت سارة من دون نجاح ان تخفي ابتسامتها وهي تنحني لتضع طبقاً في الفرن. ربما لم يكن الخطأ خطأ جيل لانها تبدو اصغر من عمرها. انها فتاة مسلية بلا شك، ولكن مزاجها المتبدل متعب. من الافضل الاّ تذكر امامها بان ايان طلب منها الذهاب الى حفلة رقص تقليدي. ثم ان سارة لم تبد قبولاً للفكرة بعد، بسبب واجباتها الكثيرة، ولكنها لم ترفض الدعوة ايضاً اذ وعدت ايان بان تبلغه قرارها في وقت ما خلال الايام المقبلة.
«متى تعود امك من اميركا؟».
سألت سارة مغيرة الموضوع، وهي تفك شريط مريولها لتغير ثوبها.
لم تستسغ جيل تغيير الموضوع، وردّت من دون حماس:
«لا اعرف متى تعود».
وهزّت كتفيها، ثم اضافت قائلة وهي تتبع خطوات سارة عبر القاعة.
«يوماً ما، على ما اعتقد».
«لم تذهبي معها؟».
«لا، كما هو واضح!».
قالت لاوية شفتها بشيء من الوقاحة.
«كان من الممكن ان افعل، لو انها انتظرت حتى شفائي من العملية».
عضت سارة على شفتيها بشك. اذا كانت جيل ارادت السفر الى اميركا فليس من الممكن ان يكون حبها لهذا الرجل في لندن حقيقياً. الا اذا كانت قد نوت اصطحابه معها.
تابعت جيل، عندما لم تعلّق سارة، بصوت مشاكس:
«يداخلني الشعور بان امي تعمّدت الذهاب خطة ان علمت بانني لا استطيع الذهاب معها. وقد تذرعت باضطرارها الى الذهاب لاسباب عائلية. ماذا يعني هذا؟! لا ادري. وتمّ كل شيء تحت ستار من الكتمان. ولكنني واثقة ان هيو يعرف السبب. الا تستطيعين ان تتزلفي اليه لتعرفي الحقيقة؟».
اتزلف اليه لاكتشف سراً! وضحكت سارة في قرارة نفسها وهي تتوقف

قرب باب غرفتها. لا يستطيع احد ان ينتزع شيئاً من فريزر سواء بالاقدام على استعمال الاساليب الملتوية او الاحجام عنها. وهي لا ترغب في المحاولة.
وخصوصاً لاشباع فضول جيل.
«سأترك هذا لك».
وابتسمت ثم اغلقت باب غرفتها بهدوء.
بعد العشاء ذهبت سارة مع هيو الى المكتبة لانجاز بعض العمل اذ اراد انهاء بعض المراسلات. وقال لها بانها تستطيع طباعة الرسائل في الصباح على ان تنتهي منها قبل موعد بريد العصر.
بدا هيو في بدلته الرمادية ضامر الجسم جذاباً. وجلست سارة. ثم اقبلا على العمل بصمت. واحست بنبرات صوته العميقة وهو يملي الرسائل عليها تتلاعب باعصابها بطريقة مزعجة.
عندما انتهى، مدّ يده الى سيكارة واشعلها. وحبست سارة انفاسها وعيناها تتحولان عن وجهه المنحوت من صخر، باحثة عن شيء تحوّل اليه انتباهها.
ووقعت عيناها فجأة على خيالها في المرآة الطويلة قرب المدفأة فراحت تتفحص مظهرها بموضوعية. بدت البلوزة الفاتحة التي ارتدتها مع تنورة سوداء مخملية طويلة وكأنها قد زادتها نحولاً. بينما لاح شعرها هذه الليلة اكثر اشقراراً وجمالاً.
وفجأة، ومن دون سبب، احست بالسعادة لانها لم تكن بالفتاة القبيحة.
عادت سارة بنظراتها الى الغرفة، واحمرت وجنتاها اذ قابلت نظرات هيو الساخرة.
فوجئت سارة وارتبكت عندما قال لها هيو بغتة بلهجة مرحة:
«تبدين جميلة هذه الليلة. كما ان العشاء الذي اعددته كان لذيذاً. لا اعرف كيف تستطيعين التدبير، ولكن حدسي بانك تعرفين الطبخ كان صحيحاً».
«ولو لم يكن؟».
«اننا على شيء من التهذيب، حتى في هذه المناطق المتوحشة».

ردّ مبتسماً.
«هذا يثير دهشتي».
«ان بيدي تبدو مرتاحة. ولم تلجأ جيل للشكوى. يجب ان اعترف بأن كفاءتك احياناً تثير دهشتي».
قال مزيحاً سخريتها جانباً.
نظرت اليه سارة بتحد، واجبرت نفسها على عدم الاستسلام للضعف.
«الكفاءة والمظهر الحسن غالباً ما يسيران جنباً الى جنب».
ردّت وقد اغاظتها صراحته الفجة.
«هناك انواع للجاذبية وحسن المظهر. ان الرجل بحاجة الى ان يحتفظ بهدوء افكاره».
لم تبذل سارة جهداً لكي تحتفظ ببرودة اعصابها. وحولت عينيها لكي تتجنب نظرة الاستخفاف من عينيه الداكنتين. لقد كان الخطأ خطأها. ما كان يجب ان تستثيره. كيف تأمل فتاة مثلها ان تخترق توازنه الفولاذي. وردت متجاهلة نبرة السخرية في صوته:
«ان الكفاءة ليست من احتكار السن. وتابعت بعناد: كما تعرف بدون شك».
«النساء يعرفن معظم الاجابات قبل ان يغادرن المهد. اما الرجال فهم يبتدئون عادة بداية سيئة. خذي ماكنزي مثلاً، لقد قهرته بنظرة واحدة من عينيك الزرقاوين على الرغم من انك فرضت عليه الانتظار».
القت سارة عليه نظرة سريعة وقد اعتراها الخجل:
«آسفة!».
تمتمت وهي تنظر الى يديها.
«كنت اتحدث الى جيل مما جعلني انسى الوقت».
كرهت سارة ان تشرح له بان جيل نسيت ان تبلغها رسالته حتى اللحظة الاخيرة. من الافضل ان تدعه يظن بها الاهمال بدلاً من ان تعرّض علاقته المتوترة باخته لمزيد من الضغط. لقد اخطأت دون شك لأنها نسيت ان تعتذر لايان. ان منظره الفتي نسبياً اذهلها عن القيام بالواجب. ولكن هذا

التفسير سيبدو سخيفاً لو تفوهت به. ولهذا اكتفت بان تضيف بهدوء:
«شرح لي الدكتور ماكنزي بعض الاشياء المتعلقة بيدي عندما ذهبت معه الى السيارة لاحضار بعض الحبوب».
«تصرف سليم، يا آنسة وينتون!».
ثم قال بلهجة مصقولة وهو ينهض ببطء مبتسماً بلين:
«اسمحي لي!».
تدفق الدم في وجنتي سارة وهي تهب على قدميها متجنبة وجهه المرتاب وقالت بسرعة:
«اذا لم يكن هناك ما افعله، فانني احب ان اخرج لاتنسم الهواء. جيل ذهبت الى سريرها مبكرة. لقد سمعتها تصعد الدرج قبل قليل. ويبدي لا تحتاج الى شيء».
فدار بسرعة ليطفىء النور. ثم خرجا من الغرفة.
«اذا لم يكن لديك ما يدعو الى الاعتراض، فسآتي معك!».
اوقفتها نبرة صوته الثاقبة. كان القمر بدراً. وهي دائماً تحب التجول وحدها. انها لا تريده ان يصاحبها فهي تود ان تريح اعصابها وتسترخي.
ونظرت سارة اليه نظرة شبه يائسة:
«افضل ان اذهب بمفردي، اذا لم يكن لديك مانع. ان الوقت ليس متأخراً».
تجمدت نظرة هيو الواثقة وقال:
«لدي مانع. ثم ان خروجي معك افضل لسلامتك، هذا اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان انقاذك في وضح النهار كان صعباً ما فيه الكفاية. وبالاضافة، انا ايضاً اشعر برغبة في المشي. وهناك بعض الامور التي اريد مناقشتك بشأنها. غداً سأسافر الى لندن، ولن يسمح لي الوقت بالتحدث اليك».
كيف تستطيع ان ترفض؟ وبدون اية معارضة اخرى وضعت على كتفيها شالاً بدلاً من ان ترتدي معطفاً لانها كانت لا تنوي الابتعاد مسافة طويلة.
كانت النجوم تتألق بشدة في سماء خلت من الغيوم. وهبت ريح خفيفة. وبدت القلعة كبناء اسطوري تحت ضوء الكواكب. بينما جاشت

الفضة في البحر الذي عكست امواجه ضوء القمر. واحست سارة بجمال المنظر وهي تتبع هيو الى الشاطىء بأسى.

سارت بسرعة وكأنها ارادت ان لا تطيل هذه اللحظات لشعورها الحاد بالرجل المحاذي لها. وسلكا الطريق الذي كان هيو قد دلّها عليه في السابق ولكنها كانت تضطر بين الحين والآخر الى التمهل لكي تلملم شعرها الذي راحت الريح تعبث بخصلاته نائرة اياها فوق وجهها وعينيها. وهمهمت بغيظ لأن شعرها وتنورتها الطويلة اخذتا تعيقان حركتها، وجرت لتلحق بهيو.

توقف هيو فجأة، وضحك بصوت منخفض. وقفزت نبضاتها عندما شعرت به يمسك بيدها ويشبك اصابعها حول اصابعه بتكاسل. كانت اصابعه نحيلة وقوية واخذت تعبث بتمالكها لنفسها. وبدأ شيء في اعماقها يتحرك ببطء... شيء جديد مثير للفزع. وسببت لمسته شعوراً لاذعاً في حنجرتها.

صرخت بومة ليلية فوق احدى الصخور العالية صرختها الموحشة. وبصعوبة سمعتها سارة. ولكنها احست في نغماتها تحذيراً. ووصلا الى ارض اقل وعورة فابتهلت سارة الاّ يشعر هيو بارتعاشاتها المتشنجة لأنها ما ارادت ان يعرف المشاعر العاصفة التي ثارت في قلبها. لقد مدّ هيو يده اليها ليساعدها كأنه يساعد طفلة. ولهذا فان ردّ فعلها القوي ليس الاّ استجابة حسية بحتة، حيلة من حيل الليل.

واستدارت سارة لتواجهه وقد احست بانها غير قادرة على متابعة هذا التحليل الصارم لمشاعرها. وتفوهت بأول جملة خطرت لها:

«متى تعود الى لندن؟».

اعطى الصمت العميق لكلماتها رنة من الاستفهام اللاهث. فندمت سارة في الحال على سؤالها.

توقف هيو ومدّ يده ليزيح خصلة عنيدة من الشعر الملتفة حول حنجرتها، كاشفاً عن كمال انسياب خطوط وجهها من الجبين حتى العنق.

«هل انت سعيدة لانني سأسافر يا سارة؟».

وكانت في لهجته نبرة غامضة. وتفحصتها عيناه الثاقبتان في الظلام.

حاولت سارة ان تقلد اسلوبه الهادىء المجرب، وهي على يقين بانها

ليست نداً لبراعته اللفظية. وتذكرت بانه قد هزأ في احدى المرات من عدم قدرتها على ردّ الكيل بمثله. انها على استعداد للاعتراف بضعفها هذا ولكن ليس تماماً.

«لقد سبق أن ذكرت انه باستطاعتي ان آخذ اجازة اثناء غيابك».

اجابت سارة متعمدة ان تعيد حديثاً جرى بينهما في السابق.

فرد هيو واسنانه البيضاء تلمع.

«لقد اخترت ان تذكريني بوعدي، ولم يمض على تقلدك لمنصب مدبرة منزلي الاّ وقت قصير. ولكن، هذا اذا لم تخني ذاكرتي، كان هناك قيد».

«قيد؟».

«لقد وعدت بان تراقبي جيل».

«دون ان اختار».

تجاهل هيو ملاحظتها، وقال:

«ان ازدياد المسؤوليات سيساعدك على النضج؛ ام انك لا ترغبين في هذا؟».

«لست بحاجة الى النضج. فانا قد بلغت ٢١ عاماً. الا تعرف؟».

«سن متقدمة!».

وضحك الاّ ان ضحكته هذه المرة كانت خالية من التسلية. وثبت عينيه على وجهها المتألق في ضوء النجوم، وقال بجفاء.

«ان العمر لا يقاس بالسنوات، بالضرورة».

«تعني الخبرة؟».

«تستطيعين قول ذلك. ولكن الخبرة هي شيء بعيد عن متناولك، كما اتخيل».

علق راداً لها الصاع صاعين. فارتعشت سارة، ولكنه تابع دون رحمة:

«لا شك ان تعلقك بحماية والديك قد حال بينك وبين التجربة».

حدّقت سارة في وجهه الاسمر الجذاب، وقد تناثر شعرها كالحرير فوق كتفها، ذائباً في نور القمر.

«لقد تحرّيت اموري، اذن».

«لم تدع الحاجة الى ذلك يا فتاتي. قال مائلاً باتجاهها. فما على المرء الاّ ان يراقبك ليصل الى هذه النتيجة».

فأجابته سارة بصوت رفيع يغلي بالغضب:

«انك انسان مستحيل».

«وانت ايضاً. دعينا نعلن هدنة بيننا».

عضت سارة على شفتها بشدة، محاولة السيطرة على نفسها كي لا تتشاجر معه بعنف. ولم تذكر انها شعرت بمثل هذا الغضب من قبل. وابتعدت عنه عدّة خطوات وانحنت لتلقط حصاة كانت تحت قدمها. ورمتها بقوة بعيداً، الى حيث راحت الامواج تتكسر على الشاطىء.

ثم اخذت نفساً عميقاً، وقالت:

«كيف تريدني ان اتصرف مع جيل اثناء غيابك؟ انها لم تذكر شيئاً عن صديقها. هل انت متأكد ان لها صديقاً؟».

فاجاب هيو بحدة وكأن تغيير الموضوع قد اثار استياءه.

«أؤكد لك بانه موجود. لقد تنازعنا انا وجيل بشأنه اثناء عودتنا من المطار».

تبعت سارة شعاعاً من نور القمر فوق الرمال. ولاح وجهها رفيقاً عكس الالق المرتعش.

«ان المعارضة غالباً ما تؤدي الى النتيجة العكسية».

«هل تريدين حقيقة ان نتكلم عن جيل؟».

كانت الرمال تتسرب من خلال اصابع قدميها وصندلها موحية لها بشعور وثير غريب. وراحت رائحة البحر تغزو حواسها، مفعمة الهواء بما يشبه السحر. وتحركت الرغبات. لم تكن الليلة مناسبة للتفكير المنطقي، ولكن سارة صممت على ان تستمر في المحاولة.

«لقد ظننت ان هذا هو السبب الذي دفعك لمرافقتي».

ارتفع حاجباه الداكنان بحركتهما المعهودة، مما اعطى وجهه في ضوء القمر تعبيراً متهكماً.

«ان ليلة كهذه لم تخلق للنقاش».

قال بنعومة ساحرة.

فتصلب جسم سارة. وبدت كحورية بحر على استعداد للهرب: عيناها مستديرتان. ورأسها مرفوع الى الوراء فوق عنقها النحيل. وغلبها شعور غريب عمره كعمر الابد. فابتلعت ريقها وقالت:

«لا اظن انني افهم ما تعنيه».

فلمعت عيناه، وتأملها بنظرة طويلة مقصودة:

«الا تظنين انه قد حان الوقت لتفهمي؟».

«ليس هناك ما يجبرني على الاصغاء لمثل هذه الكلمات».

قالت بضعف، وهي تطرق بعينيها تحت وطأة نظراته الفاحصة المستعصية. فضحك ضحكة عميقة.

«لن امثل دور الرجل المتوحش البدائي، اذا كان هذا ما يقلقك».

ارتجفت سارة عندما مدّ يده مرة ثانية الى شعرها، لاوياً خصلة منه حول اصابعه راحت تتألق في ضوء القمر. وتابع مكملاً حديثه بصوت مشدود:

«ولكنني لا املك الآن الا ان اتساءل كيف ستتصرفين لو فعلت. هل هذه الهالة من البراءة التي تحيط بك مجرد غلاف سطحي، يا ترى؟ عندما تختار فتاة مثلك ان تدفن نفسها في جزيرة نائية فان السبب في العادة لا بد ان يكون رجلاً».

«أتعني أنك لا تعرف السبب وراء قدومي هنا؟».

«لقد ظننت انه من المثير ان احاول معرفته، خصوصاً بعد ان رايت الطريقة التي نظرت بها الى ايان ماكنزي».

أجاب بسخرية لا تحتمل.

«كيف تجرؤ؟».

واشتعل غضب سارة ليتلاشى بالسرعة نفسها. ومسحت على جبينها بيدها كالمنومة، وقالت:

«ماذا لو قلت لك ان السبب هو احساسي بالتعاسة».

«وفري عليّ التفاصيل البائسة. ان كتفي لم يخلق لتجفيف الدموع».

«لا يمكن لامرىء صحيح العقل ان يظن بك مثل هذا الظن».

اجابت سارة بعنف، رادة كلماته الى نحرها، وعيناها تفيضان بدموع لم تذرفها تنجت عن الجرح العميق الذي سببه لها. وندمت على النزوة التي كادت ان تدفع بها الى الافضاء اليه بالحقيقة عن والديها. وحركت رأسها بسرعة لكي تخفي وجهها المبلل بالدموع تحت خصلات شعرها الثقيل. ولكن هيو لاحظ لمعان الدموع في عينيها.

«وفري عليّ هذه الدموع. أعدك بان أطلق العنان لغضبي كالبركان اذا

ما استسلمت للبكاء. او لعله من الافضل ان اخلق لك سبباً يدعوك للبكاء!».

شعرت سارة بجسمها يطفو في الهواء، تتدافعه صعوداً ونزولا زوبعة عواطفها الثائرة.

صدمت سارة عندما عانقها هيو لأنها كانت على جهل بالمشاعر التي كانت تجيش في نفسه باستثناء غضبه. واحست بقربه منها يحجب قدرتها على التفكير الواضح.

وفجأة، ومن دون انذار، انتزع ذراعيها من حول رقبته وازاحها بحزم بعيداً عنه، فترنحت سارة تحت صدمة هذا الرفض غير المتوقع.

وتناهى اليها صوته خشناً، قاسياً:

«لم تتصرفي وكأن قلة الخبرة التي تدّعينها قد شكلت لك عائقاً».

احست بوقع كلماته عليها كالماء البارد. فعاد اليها وعيها. انه لمن الجنون ان تدعه يعاملها بمثل هذه الطريقة.

«ما الذي جعلك تتصرف هكذا؟».

«الله وحده يعلم. . . الاغراء. . . الاستفزاز».

وسرت نظراته فوق جسمها النحيل تومض بلمعة استحسان مزعجة.

«ما كان يجب ان آتي معك الى الشاطىء».

«لم اشجعك».

وغطت كلماتها حاجتها اليائسة لبعث ثقتها في نفسها من جديد.

استعاد هيو تمالكه لنفسه وبدا وجهه كالقناع الجامد وقال:

«هناك عدة طرق لتشجيع الرجال، يا سارة. وانت تفعلين ذلك دائماً لا شعورياً».

«هذه كلمات مريضة. كيف تستطيع التفوه بها؟».

«هذه هي الحقيقة يا سارة، سواء أكنت عالمة أم جاهلة بها. انت تجذبين الرجال كما يجذب اللهب الفراش».

حدقت فيه سارة مرتاعة. هل يظن أنها معتادة على مثل هذه التصرفات؟

«اظن انك قد ارتكبت خطأ».

«لا. أجاب بقوة وبصوت بدأ الغضب يذوب منه. ولكن الوقت متأخر

وانت تبدين متعبة. ثم اننا لا نريد ان نبدأ شيئاً لا نستطيع ان ننهيه. يحسن بنا ان نعود. وكما قلت سابقاً ما كان يجب ان آتي معك».

«ولكنك قلت بان هنالك بعض الامور التي تريد ان تناقشني بشأنها».

وبصعوبة استطاعت سارة ان تدرك فحوى كلماتها لأن ذهنها كان ما يزال يعاني من اثر الصدمة.

«ليس هنالك من لا يستطيع الانتظار».

لفت سارة الشال حول جسمها، وحدقت في البحر امامها. كان القمر قد اختفى وراء غمامة مما جعلها غير قادرة على تبين موقع خطواتها الاّ بصعوبة. وتعثرت فجأة ولكن يده امتدت اليها في الحال لتسندها، الاّ ان لمسته الآن كانت جافة خالية من المشاعر، وراح يساعدها على صعود الدرب الضيق الغارق في الظلال.

واحست سارة بانه قد ندم على مغازلتها. وبذلت سارة محاولة شبه مكشوفة لتجمع شتات نفسها. وسارت دون ان تعلق على كلمات فريزر الاخيرة. وتمهلت خطوات هيو بجانبها، وبدا وجهه الداكن عصيا على القراءة. ثم تناهت اليها كلماته المفعمة بالسخرية:

«لا داعي لأن تغلقي الابواب في وجهي لأن الصدف شاءت ان اكون رئيسك. أنت دائماً تصرين على الاشارة الى وضعك ووظيفتك حتى اصبحت فكرة لا تتزحزح في رأسك الرجعي الجميل هذا. انه من المعروف ان كثيراً من الفتيات ينتهين بالزواج من رؤسائهن».

سرت القشعريرة في جسم سارة. انه يحاول ان يجعل الموقف يبدو مسلياً. لقد كان من الممكن ان تغفر له عدم اهتمامه، ولكنها لا تستطيع ان تغفر له هذه السخرية اللاذعة. وابتلعت ريقها بصعوبة ثم قالت:

«لم اعمل في خدمة العديد من الرؤساء، يا سيد فريزر».

«من الان فصاعداً، يا صغيرتي، نائرة اللهب، نادني باسمي: هيو».

ارتجفت سارة. من الواضح ان اسلوبها المتكلف قد ضايقه. ولكنها تفضل ان تواجه غضبه على ان تدعه يكتشف الطريقة المؤلمة التي استجابت بها له. حمداً لله على قرب موعد سفره. اثناء غيابه ستحاول ان تتعلم كيف تواجه هذه الكتلة من العواطف الجياشة التي تعتمل في نفسها. حتى اذا ما عاد استطاعت ان تواجهه بنوع من الموضوعية، ولو لم تشعر بها.

اطلت القلعة مهيمنة. وصاح طائر بين الاشجار. وارتعدت سارة اذ حادت نظراتها عن وجه هيو الساخر لترحل عبر الريح والسماء فوقها. واحست بانوثتها كما لم تحس بها من قبل. ولكنها صممت على ألاّ تدعه يخمن مشاعرها.

اخذت سارة نفساً عميقاً. واشاحت بوجهها لتخفي قطرات الدموع التي لسعت عينيها.

«من الافضل ان اذهب الآن. لقد وعدت بيدي بان اعد لها شراباً ساخناً. ستتساءل الى اين ذهبت اذا لم افعل».

واستدارت ثم عبرت الباب الامامي الضخم بخطوات سريعة.

٥- أرجوحة الحزن

غادر هيو القلعة مبكراً في صباح اليوم التالي ليذهب الى لندن.

وكانت سارة قد نهضت من فراشها متأخرة بعد ليلة غير مريحة مما اثار غيظها. وهرعت الى الاسفل لتجد ان هيو قد خرج بعد ان تناول فطوره بمفرده. ونظرت سارة الى كرسيه الفارغ بمزيج من الارتياح واليأس.

«كان مستعجلاً جداً يا آنسة سارة. قالت كاتي من وراء ظهرها. سألني ألاّ اوقظك لأنه قدّر بان تكوني متعبة. ولم ينتظر حتى اقلي له بعض البيض. لقد اخذت بعض الشاي الى بيدي قبل قليل. وهي تصر على مغادرة الفراش واستئناف العمل».

«آه، لا!».

وأسرعت سارة تصعد درجات السلم الى غرفة بيدي باستياء شديد لكي توبخها. ولما استطاعت اخيراً ان تقنعها بالبقاء في السرير، وجدت في انتظارها مجموعة من المشاكل مما اضطرها لأن توفر لها اهتمامها الكامل، ولم تجد وقتاً لتناول اكثر من فنجان قهوة وقطعة خبز محمصة.

«الآنسة جيل تشعر بالتعب. قالت كاتي وهي تقوم باعداد صينية فطور باهتمام. ولن تغادر غرفتها قبل موعد الغداء».

لم تنزعج سارة، لان هذا الترتيب من شأنه ان يتيح لها طبع رسائل هيو والحصول على توقيعه قبل ذهابه. وعندما رأته اخيراً لم يبد عليه القلق بشأن جيل.

«هذا شيء متوقع، كما اعتقد. لا شك أنّ الرحلة قد اتعبتها وستحتاج الى الراحة لفترة قبل ان تستعيد قواها. وهذا يعني انها لن تسبب لك كثيراً

من المضايقات قبل عودتي».

بدا واضحاً انه ما كان ينوي ان يبدي عواطف الشفقة! ودون ان يضيّع مزيداً من الوقت وقّع الاوراق ونظر بسرعة الى بريد الصباح.

«سأغادر بعد قليل».

قال وهو يرمق مكتبه بسرعة، ثم حطت عيناه على وجه سارة المصفر:

«اتوقع ان تديري الامور بكفاءة. ولكن اذا ما حدث اي شيء واحتجت الي فيمكنك الاتصال بي في مكتبي. هذا هو الرقم. سأترك لك ايضاً رقم الشقة لكي لا تجدي صعوبة بالاتصال بي عند الضرورة».

نظرت سارة بكآبة الى رأسه الداكن وهو ينحني ليكتب رقم الهاتف. وكان قد ارتدى بدلة انيقة فوق قميص مقلم فاتح مما ابرز سمرته ورجولته.

استقام هيو بقامته واستعرضتها نظراته ببطء حتى استقر على الضماد الطبي فوق ذراعها. فافترت شفتاه عن ابتسامة خفيفة ساخرة.

«لا شك ان الدكتور ماكنزي سيعتني بك. لا تسمحي لنفسك بالوقوع في شباكه تماماً، يا سارة».

ازاحت سارة رأسها بسرعة متجاهلة كلماته. وتصنعت الاستخفاف. ولكن ملاحظته آلمتها، فاجابت:

«قد تعود من لندن قبل ان يأتي لزيارتنا ثانية».

ورفعت رأسها فوجدت عينيه مصوبتين عليها فتسمرت تحت وطأة نظراتها النفاذة للحظة. ثم اجبرت ذهنها على التحوّل للاهتمام ببعض التفصيلات التي بقي عليها اتمامها، رافضة ان تدع ذهنها يعود الى ليلة البارحة. وعلى الرغم من هذا شعرت بحمرة الخجل تصبغ خديها، فاسرعت لتجمع حزم الرسائل واخذت ترتبها.

«اشك في هذا. ان الرجال امثال ماكنزي لا يقعون تحت تأثير النساء بسهولة، ولكن عندما يفعلون لا تستطيع حتى الخيول البرية ان تصدهم».

هل حملت ملاحظته نوعاً من التحذير الخفي؟ لا شك انه قصد ان يلفت نظرها الى حقيقة نوايا ماكنزي، هذا اذا كانت لديه نوايا! ولكنه ليس بالقيم عليها. ان ايان على الاقل قد تصرّف بمنتهى اللياقة، اما هيو فان سلوكه يتأرجح بين اللطف والخشونة من لحظة الى اخرى. وردّت سارة متسرعة تحت وطأة السخرية في عينيه:

«ولقد وقعت انت نفسك تحت تأثير الآنسة اسكويث في الامسية الفائتة».

انكمش هيو في الحال. واحست بافكاره تنفصل عن ذهنها، وكأنه انسحب بجسمه من الغرفة. وبلل العرق كفيها اذ تجسمت لها فجأة جسامة حماقتها. ولكنه عندما تكلم جاء صوته ثابتاً، على الرغم من ان السخرية ما تزال عالقة به.

«لعله يمكننا تشخيص مزاجنا هكذا: مواجهة الصباح بعد ليلة البارحة». وهزّ كتفيه باستخفاف. وكانت هذه هي الملاحظة الوحيدة التي ابداها بشأن نزهتهما على شاطىء البحر. فغمرها الخجل الشديد.

توقف هيو للحظة ليتأمل اللون الوردي الذي تألق في خديها وقد رفعت رأسها المتلألىء لتحدق في عينيه. وكان وجهه قريباً منها فاشاحت بوجهها لتتجنبه.

«آسفة!».

اعتذرت بلهجة يائسة، محاولة ان تخفي ضربات قلبها وهي لا تدري ماذا تقول، فالتمعت عيناه بسخرية لا قرار لها. ومد اصبعه الى خدها المحمر ناقراً اياه بخفة. ثم ادار ظهره فجأة قائلاً من وراء كتفه وهو يتجه نحو الباب:

«سأراك عندما اعود».

لم تستطع سارة ان تستقر في البيت بعد الغداء. ولهذا قررت ان تذهب الى القرية لتضع الرسائل في البريد. وسألتها بيدي ان تحضر لها بعض الحوائج كما طلبت منها ان تذهب لزيارة اختها التي كانت على موعد معها هذا العصر. ولما لم يكن بالامكان ان تخرج بيدي من القلعة فقد وعدتها سارة بان تسأل فيما اذا كانت اختها تحب ان تأتي لزيارتها لمدة ساعة او ساعتين.

سعدت سارة بهذه الفرصة لمغادرة القلعة التي بدت موحشة بعد ذهاب هيو.

لم تهبط جيل الى الطابق الاسفل الاّ بعد رحيل هيو. وامضت بقية الصباح في التجول من غرفة الى غرفة من دون هدف. واقترحت سارة عليها ان تأتي معها الى سالن، ولكن جيل لدهشتها رفضت.

«لا ارغب في ان افعل اي شيء».

قالت بصراحة وهي تتثاءب مكورة فمها الوردي الصغير.

«سأصاب بالملل دون شك. انا واثقة انك ستتمتعين بنزهتك اكثر من دوني».

اوشكت سارة ان ترد عليها قائلة بان خروجها ليس للمتعة، وان الانسان يحتاج احياناً الى تنفس بعض الهواء النقي، ولكنها احست بانه من الحكمة الا تقول شيئاً. من الواضح، لسبب لا يعرفه احد غيرها، ان جيل تعاني من سوء المزاج. وعندما لمحت لها سارة بان مزاجها سيتحسن عندما تستعيد صحتها ردت قائلة:

«انني لست مقعدة».

وكانت لهجتها غاضبة اذا اغاظتها لهجة التفاؤل في كلمات سارة.

ابتسمت سارة مكرهة. من السهل اثارة مشاعر جيل العدائية، ولكنها اذا ما ارادت ان تعيش معها تحت سقف واحد، فانه من الافضل ان تكون معها على وفاق. بعد قليل تركتها سارة تستمع الى بعض الاسطوانات، وهرعت الى السيارة.

اقتربت سارة من الجاغوار باحتراس. لقد سمح لها هيو باستعمالها شريطة ان تلزم جانب الحذر.

«كل ما تحتاجينه هو استعمال عقلك».

اجابها بصبر نافذ عندما احتجت بانها لم تجربها بعد.

ركبت سارة السيارة وتمنت مبتهلة ان يكون هيو على حق وهي ترجع بالسيارة الكبيرة الى الخلف لتخرجها من المرآب. وتخيلت التعليقات اللاذعة التي لا بد ان يبديها هيو فيما لو سببت حادثاً للسيارة، او الحقت بها الاذى. هذا على الرغم من تهاونه معها باستعمال السيارة! يحتمل ان تكون تعليقاته في مثل هذه الحالة اسوأ من التعليقات التي كان بوسعه ان يتفوه بها عندما ابدت ملاحظتها بشأن بيت اسكوت. لا شك ان التمالك والسيطرة على النفس اللذين بذلهما... هذا الصباح يستحقان الاعجاب اذا ما اخذ المرء بعين الاعتبار لذاعة لسانه حتى في الاحوال الطبيعية.

في سالن. ألقت سارة الرسائل في صندوق البريد. واشترت الحاجات التي طلبتها منها بيدي. وبعد ان وضعت المشتريات في صندوق السيارة

قررت ان تذهب للبحث عن شقيقة بيدي. لم تكن ارشادات بيدي واضحة. كانت قد طلبت منها ان تبحث عن بيت صغير في الجانب الآخر من البلدة. وقالت:

«اي شخص يستطيع ان يدلك عليه».

ولكن سارة لم تجد اي شخص حولها لتوجه اليه السؤال. وانبّت نفسها لانها لم تسأل عن البيت في مكتب البريد. وكانت بيدي قد اعطتها اسم البيت ايضاً. ولما لم تكن على عجلة من امرها، فقد قررت ان تذهب للاستكشاف. وكان العصر دافئاً ولطيفاً. ولهذا فان البحث عن البيت سيعطيها فرصة للتعرف على ما حولها. ولم تشك في انها ستعثر عليه قريباً.

وفجأة عند منعطف الطريق، شاهدت كاتي تتحدث الى رجل ملتح. كانا يقفان جنباً الى جنب والاشجار تكاد تحجبهما، مستغرقين في الكلام.

توقفت سارة بدهشة. وشخصت بناظريها. يبدو انه مكتوب عليها ان تلتقي به دائماً، آخر مرة في توبرمري، والآن هنا. ولكن عامل المفاجأة هذه المرة هو ان تراه يتحدث الى كاتي. لا شك انه واحد من سكان الجزيرة. او قد يكون صديق كاتي، على الرغم من انها ذكرت بان صديقها لا يعيش في هذه الجزيرة. او لعله ليس الا عابر سبيل توقف ليسأل كاتي عن الطريق. هناك تفسيرات عديدة.

واستدارت سارة وقد فقدت اهتمامها لتتابع بحثها عن البيت. واخيراً عثرت عليه في الجانب الآخر من القرية. وبعد ان عرّفت بنفسها انتظرت حتى ارتدت اخت بيدي، الآنسة بلاك، افضل معطف وقبعة لديها.

«لا يناسب القلعة الا الافضل».

قالت الآنسة بلاك بغموض وهي تستقر في المقعد بجانب سارة.

«هذا ما قاله السيد فريزر العجوز امامي عندما جاء ليستقر هنا، وقد ردّد هذه الكلمات بذاتها فيما بعد مشيراً الى الجزيرة. انني لاتساءل فيما اذا كان السيد فريزر الشاب يحمل الرأي نفسه».

ادركت سارة بان الآنسة بلاك عنت هيو. وان فضولها يدفعها كالآخرين، الى محاولة معرفة فيما اذا كان ينوي ان يتخذ لوخ غويل مقراً له. ولما ردّت سارة قائلة بانها لا تعرف بدت خيبة الامل واضحة على قسماتها التي تشبه قسمات الطيور. وكتمت سارة رغبتها في ان تضيف

متهدة بانها هي ايضاً تتمنى لو تسمع منه قراراً بهذا الشأن. من المحتمل ان اجبار كل هؤلاء الناس على العيش في حالة توقع يعطي هيو شعوراً بالأهمية، وهو شعور لا تستطيع ان تشاركه اياه، ولكي تتجنب افكارها المزعجة راحت سارة تثرثر متحدثة عن بيدي. وسرها انها قد نجحت في تحويل انتباه الآنسة بلاك.

«آمل ان تتحسن بيدي خلال يومين او ثلاثة».

«لقد قلت لها مراراً بان الوقت قد حان لكي تتقاعد. لا لأنها قد عجّزت كثيراً، ولكن لأن آلامها ستتفاقم اذا لم تعتن بنفسها».

كان من الصعب ايقاف اخت بيدي عن الكلام بعد الشروع فيه. ولهذا تركتها سارة تتكلم، معيرة اياها انتباهاً بسيطاً. لأن افكارها اصرّت على العودة الى كاتي والرجل الغريب.

«ان كاتي هي ابنة اخيك، اليس كذلك؟».

سألت سارة عندما ابدت الآنسة بلاك، ويا لحسن الحظ، ملاحظة تتعلق بكاتي.

ولم تعرف سارة لماذا سألت هذا السؤال.

«ليست ابنة اخي بالضبط. شرحت الآنسة بلاك. بل قريبة بعيدة نسبياً. وكان من حسن حظها ان تعثر على وظيفة في القلعة عندما رفضت ان تترك الجزيرة».

«لماذا؟ اعني ان الحياة الهادئة في القلعة لا تناسب فتاة يافعة مثل كاتي».

«نعم. من بعض النواحي».

تابعت الآنسة بلاك من دون ان يبدو عليها انها وجدت شيئاً غير عادي في سؤال سارة.

«وقد يتبرّم معظم الناس من مثل هذا الهدوء. ان قلة الوظائف هي المشكلة الحقيقية. ولكن لكي تكوني على علم اكثر بالموضوع، سأفضي لك بان والدة كاتي ماتت عندما كانت طفلة. ولهذا تولينا انا وبيدي امر رعايتها. وقد امضت كاتي جزءاً كبيراً من طفولتها وصباها في القلعة. ولعبت مراراً مع الآنسة جيل التي كانت تأتي لقضاء عطلاتها هنا. ولهذا يمكن القول بأنهما شبتا معاً رغم اختلاف ظروفهما- تعرفين ما اعني؟ والى الآن ما زالتا صديقتين حميمتين. وكان هذا احد الاسباب الذي دفع كاتي

لأن تذهب للعمل في القلعة بعد ان تركت المدرسة».

بدأت الامور تتضح لسارة بعد هذا الشرح الطويل. وقالت بابتسامة:

«لقد وصلت جيل البارحة. اتوقع ان تكون كاتي سعيدة بلقائها».

وأضافت بحذر: اعتقد انني لمحت كاتي بينما كنت ابحث عن بيتك، في سالن، هذا اذا لم اكن على خطأ».

«لا، لا اعتقد انك اخطأت».

وهزت المرأة الصغيرة رأسها الرمادي، وعلا العبوس وجهها الذي لوحته شمس البحر.

«ولكن آمل الا تظني بانها تختلس الوقت من وراء ظهرك. لقد جاءت لتراني لبضع لحظات. وقالت بانها قد اتت الى سالن بغرض إبلاغ رسالة من الآنسة جيل الى صديق. لم تذكر اسم الشخص المقصود. ولكنها ستعود الى القلعة في الحال بعد تبليغ الرسالة. هذا ما قالته».

اظلمت السماء بغتة. واخذت قطرات المطر تتساقط على زجاج النافذة فسارعت سارة لادارة المجفف لمسح الزجاج امامها.

«آمل الا تبتل تحت هذا المطر».

قالت سارة مبتسمة باستياء وهي تضغط على مكبس البنزين.

«هذا ليس الا وابلاً من المطر على ما اعتقد. وكاتي لا يزعجها المطر. فالامطار تهطل بغزارة هنا».

بدا على الآنسة بلاك انها وجدت في تعليق سارة العابر باعثاً على الاطمئنان.

واسترخت في مقعدها مصعدة تنهيدة ارتياح.

القت سارة عليها نظرة سريعة. ثم راح ذهنها يجتر الحقائق التي كشفتها لها هذه المحاورة. بدا من الغريب ان ترسل جيل كاتي الى سالن لتحمل رسالة منها بعدما ذكرته عن شعورها بالتعب وعدم رغبتها في ازعاج نفسها بشيء. ثم انه من المؤكد ان معظم معارف جيل في الجزيرة يملكون هواتف في بيوتهم. ولهذا فان كل الملابسات تشير الى مؤامرة تحاك في الخفاء. ولكن من المحتمل ان كاتي قد اختلقت هذا المبرر لكي تخرج من القلعة، مستغلة مرض بيدي. وعبست سارة ضائقة بالقلق الذي غمر نفسها. وفجأة لمعت فكرة مفزعة في ذهنها. ان الرجل الغريب الملتحي تكلم بلهجة تدل على انه

قادم من الجنوب. لا، لا يمكنها ان تصدّق هذا. ولكن هل يمكن ان يكون هذا الرجل هو الفنان الذي تحبه جيل. هذا الاحتمال هزيل دون شك. فالرجل غادر القارب معها عندما وصلا قبل ثلاثة اسابيع. ولو انه كان صديق جيل لانتظر وصولها قبل ان يسافر. يجب الاّ تدع خيالها وشعورها بالمسؤولية يسيطران على افكارها بهذا الشكل.

ساقت سارة السيارة الى ساحة القلعة. وبعد ان ساعدت الآنسة بلاك على مغادرة السيارة اخذتها لترى بيدي. ثم تركتهما معاً واعدة بان تعود بعد ان تعدّ لهما بعض الشاي. واخبرتها بيدي قبل ان تترك الغرفة بان الطبيب جاء لزيارتها، وانه وعد ان يمر ثانية في الصباح.

«لا افهم ما حدث!. ثلاث زيارات خلال ثلاثة ايام! انني اخشى حتى وضع قدمي على الارض، على الرغم من ان آلامي قد زالت».

وفكرت سارة وهي تهبط الدرج: لقد كان هيو على حق اذن بشأن ايان. ام هل كان؟ طبعاً، هي لا تعرف شيئاً عن عادات الاطباء في هذه المنطقة من العالم. ولكن ليس هنالك سبب واضح يدعو لتفسير زيارات ايان بغير الاخلاص للواجب.

فوجئت سارة بجيل في المطبخ، التي استدارت بتلهف عندما سمعت وقع اقدامها. ولكن خيبة الامل حلّت محل التطلع عندما عرفت شخصية القادم. من الواضح انها كانت تنتظر شخصاً آخر. وحيت سارة باقتضاب واشاحت بوجهها عابسة، بينما سارعت سارة لاعداد بعض الشاي.

«سآخذ الشاي الى غرفة بيدي. شرحت سارة مجيبة على التساؤل الصامت في عيني جيل. ان الوقت ما يزال مبكراً ولهذا فستعد لنا كاتي الشاي عندما تعود من سالن».

صاغت سارة جملتها باحتراس. وراحت تراقب وقع كلماتها على جيل بانتباه. لحظة صمت! ثم لاحظت سارة بارقاً من الحذر يزحف الى عيني جيل على الرغم من انها لم تفصح عن اي شعور بالفزع.

ضحكت جيل فجأة، مشيحة بوجهها عن وجه سارة المرهف، وذهبت لتجلس قرب الموقد على كرسي بيدي. واسندت ظهرها متكئة الى الوراء، شابكة ساقيها النحيلتين. واحست سارة بانها تراقبها من خلال جفنيها شبه المطبقين، مما اثار الغيظ في نفسها.

«طبعاً. قالت جيل وهي تطلق ضحكة رقيقة. لو عرفت بان كاتي كانت تنوي الخروج لسألتك ان توصليها بالسيارة الى سالن عندما عرضت علي مرافقتك الى هناك».

من الواضح ان هنالك بعض الاسباب التي تدفع احد هؤلاء الاشخاص الى عدم التصريح بالحقيقة. بينما راحت تفكر فيما قالته جيل. اذا كانت جيل صادقة فان كاتي قد كذبت من دون شك. ولكن لماذا تتظاهر كاتي بانها قد ذهبت الى سالن من اجل ان تحمل رسالة من جيل؟ لم يكن هناك ما يدعوها لاختلاق مثل هذا العذر لانها لا تعمل عادة في الفترة التي تتلو الغداء وتسبق تناول الشاي.

«بما ان كاتي تقطن في سالن. تمتمت سارة وهي تراقب وجه جيل الاملس. فاني اعتقد بانها ذهبت الى البلدة لتزور خالتها. لقد اصطحبت الآنسة بلاك من سالن لتزور بيدي».

«الآنسة بلاك؟».

لو ان سارة قصدت لا شعورياً أن تفزع جيل لقد نجحت. لأن الاخيرة انتصبت في مقعدها فجأة، وجابهتها بوجه خال من التعبير. ثم هتفت بغضب:

«هل تعنين هذه المرأة العجوز الثرثارة التي لا تنقطع عن الكلام؟ إنّ المرء لا يستطيع ان يصدق نصف ما تقوله».

«من فضلك. . . ا».

ورفعت سارة يدها بحركة دفاع عن النفس، وراحت تحدّق بعينين غمرتهما الدهشة والفزع بالفتاة الجالسة على الكرسي. ان السيدة بلاك ليست امرأة ثرثارة كما وصفتها جيل. ولكن من الواضح ان قدومها مع سارة هذا العصر قد سبب ازعاجاً كبيراً للفتاة.

قررت سارة، مدفوعة بالرغبة في حماية نفسها، الا تسمح للقلق ان يسيطر عليها. وكانت على وشك اتمام جملتها بعد صرخة التعجب التي اطلقتها عندما رن جرس الهاتف. فقفزت جيل التي لم يكن من عادتها ان تهب للمساعدة للاجابة على الهاتف. اما سارة فقد راحت تدهن بعض شرائح الخبز بالزبدة.

عادت جيل بعد دقائق وقالت:

«كانت المكالمة من بيث اسكويث».

وجلست على الكرسي. وبدا عليها انها قد استعادت تمالكها لنفسها. ثم تابعت بابتسامة راضية:

«كانت غاضبة جداً لأن هيو سافر دون ان يخبرها. وسألتني فيما اذا كان سيرجع قبل موعد الحفلة الراقصة في الاسبوع المقبل».

«حفلة راقصة؟».

سألت سارة محاولة ان تكتم موجة الفرح التي غمرتها. فقد ظنّت ان هيو وبيث ذهبا معاً الى لندن.

«آه! حفلة راقصة تقليدية. ان والدة بيث تقيم واحدة في حزيران من كل عام. واحياناً نأتي خصوصاً لحضورها، من دون هيو بالطبع، لانه غالبا ما يكون في مكان ما في الخارج. لقد اخبرت بيث بأنني لا اظن انه سيستطيع حضور الحفلة هذا العام ايضاً، مما جعلها تضع سماعة الهاتف بسرعة».

«ولكن. . .».

وحدّقت سارة في وجه جيل عابسة وقد لاحظت التعبير الشقي المرتسم عليه.

«ان هيو يتوقع ان يكون هنا بعد يوم او اثنين. لقد ذكر لي ذلك بنفسه».

«هل قال ذلك؟ ردت جيل بصوت ناعم ذي معان. ان الدقة في تحديد المواعيد والاماكن ليست من طبع هيو».

«لا تكوني حمقاء».

اجابت سارة بثبات. ولكنها احست بوجهها يشتعل خجلاً بسبب التلميح الذي تضمنته كلمات جيل. وختمت كلماتها قائلة بضعف:

«اظن انك كنت تمزحين مع الآنسة اسكويث».

«هذا كلام فارغ. وتجعد وجه جيل بتكشيرة غير لطيفة. انا لا استلطف الآنسة اسكويث، واعرف انها لا تحبني. ولهذا فلا داعي لان تقفي بيننا مسلحة بسلاح الدبلوماسية! لم اجد ما يدعو الى تهدئة قلقها. من الصعب ان يثق المرء بهيو. فهو يغيب احياناً لمدة عدة اسابيع اذا راق له ذلك».

«هل من عادة سكان الجزيرة ان يقيموا عدة حفلات من هذا النوع؟».

«طوال فصل الشتاء. أجابت جيل باقتضاب. في اغلب الاحيان لا

يتعدى الاحتفال تبادل الاحاديث والاستماع الى بعض الاغاني، او تناول الشاي والقهوة مع السندويشات والكعك الساخن. اما والدة بيث فانها تقيم حفلة كبيرة كل سنة تخصّص ريعها للجمعيات الخيرية. وتصر على ان يكون كل شيء في كامل الزينة والابهة. ربما يصطحبك هيو معه اذا حضر في الوقت المناسب».

تذكرت سارة فجأة دعوة ايان ماكنزي، فقالت باندفاع دون ان تفكر:

«في الحقيقة دعاني الدكتور ماكنزي لحضور الحفلة بصحبته».

«حسناً. . . هزت جيل كتفيها بدون اكتراث، وبدا على وجهها الصغير عدم الاهتمام. يبدو انك ستحضرين الحفلة بطريقة او باخرى. في الحقيقة انا اكره فكرة زواج بيث من هيو. واضافت دون ان تأخذ نفساً: الا ان هيو يجب ان يتزوج يوماً ما. لعل زواجه سيحسن طباعه ويجعل منه انساناً».

غادرت سارة المطبخ بسرعة خوفاً من ان تستطرد جيل في الكلام. وتلكأت في غرفة بيدي غير راغبة في العودة الى المطبخ كي لا تسمع المزيد عن هيو وبيث، محاولة ان تقنع نفسها بان السبب الوحيد هو كرهها للاصغاء الى الشائعات. ولكن صورة هيو طاردتها في كل مكان. وكلما التفتت رأت وجهه ينحني فوق وجهها والقمر يضيء شعره الكالح.

حاولت سارة ان تطرد خيال هيو من ذهنها. فعرضت على الآنسة بلاك ان توصلها الى سالن. وعادت قبل موعد العشاء بدقائق، فسارعت لتحضير بعض الحساء والسلطة.

واحست بالارتياح عندما وجدت ان جيل كانت في غرفتها. اذا كانت جيل وكاتي تتآمران معاً، فانها لا تريد ان تعرف شيئاً عن الموضوع. ولكن كاتي هدأت من شكوكها عندما جاءت الى المطبخ، وقالت لها بانها ذهبت الى سالن لترى صديقة وعدت بان تأتي وتطبخ حتى تشفى بيدي من مرضها.

«اذا لم يكن لديك مانع. فان جين ستقوم بالمهمة خير قيام».

لم يكن هنالك داع لقلقها اذن! وتابعت كاتي قائلة بان السيد فريزر هو الذي اقترح هذا الحل قبل ذهابه. ولم تعرف سارة أسرّتها الفكرة ام اغاظتها؟ الم يكن بالامكان ان يستشيرها قبل ان يسارع الى اتخاذ القرارات؟ فلو انها عرفت مسبقاً سبب ذهاب كاتي الى سالن لما عانت من

كل هذا القلق غير الضروري.

في صباح اليوم التالي عندما وصلتها رسالة من جين مع بريد الصباح، ازدادت سارة انشراحاً. وقالت جين بانها مشغولة في المكتب. ولكنها ستأخذ اجازة قصيرة عما قريب. وقد فكرت في ان تأتي لقضائها في جزيرة «مل» وسألت سارة ان تخبرها عن وقت يناسبها لكي تستطيعا قضاء بعض الايام معاً، ثم العودة الى لندن معاً ايضاً اذا ما كانت سارة قد انتهت من العمل في لوخ غويل.

انتهت من العمل في لوخ غويل؟ وشعرت سارة على الرغم من سرورها برسالة جين بأن الصباح قد فقد اشراقه.

قضت سارة بقية الصباح في انجاز عملها، ولم تر جيل الا لماماً. وكانت على وشك ان تذهب للبحث عنها لكي تتناولا الغداء معاً عندما وصل ايان ماكنزي ليزور بيدي كما ادعى. وقضى في القلعة ساعة امضى نصفها في التحدث الى سارة وحاول ان يقنعها للمرة الثانية بالذهاب معه الى الحفلة الراقصة، ولكنها وجدت نفسها كالسابق، غير قادرة على اعطائه وعداً قاطعاً، اذ انها لم تستطع ان تتخلص من فكرة ان بيث أسكويث لا تميل اليها، على الرغم من ان مدة تعارفهما كانت قصيرة. وشعرت سارة بأن هذا ادعى لان لا تفرض نفسها على بيث. وودعت ايان بابتسامة آسفة، ثم عادت للبحث عن جيل.

ولما لم تستطع ان تجدها، سألت كاتي التي كانت مشغولة في المطبخ تغسل اطباق الغداء. فاجابت بأنها لا تعرف.

«لعلها قد ذهبت لتزور الآنسة اسكويث. لقد ذكرت لي بان الآنسة بيث قد تلفنت البارحة».

ولما وجدت سارة ما تزال واقفة تحدق فيها بعبوس، ادارت زر الراديو ورفعت الصوت.

امتنعت سارة عن الرد ذاكرة بانها على علم برأي جيل بشأن هذه المكالمة. وظنت بأنه من غير المحتمل ان تكون جيل قد ذهبت لزيارتها. ولكن لماذا؟ احياناً يدعي الناس بأنهم يكرهون بعضهم بينما لا تكون هذه الكراهية في الحقيقة الا شيئاً ظاهرياً. الا ان سارة استمرت على الرغم من هذا في شكها في ان تكون جيل مع بيث. طبعاً، ان كاتي انما خمنت تخميناً.

ولهذا فان جيل قد تكون في مكان آخر، اي مكان!

ما كان للقلعة جيران ملاصقون. وكان اقرب جيرانهم يعيشون على بعد عدة اميال على الساحل. ولولا ان دق جرس الهاتف فجأة لما عرفت سارة من اين تبدأ البحث عن جيل.

كانت سارة قد قررت ان تنسى جيل لبرهة. وتذهب لقضاء ساعة على الشاطىء لان اليوم كان جميلاً وشعرت باشعة الشمس والبحر يناديانها خصوصاً أنها وجدت نفسها لاول مرة دون مسؤوليات كبيرة. وكانت بيدي نائمة في غرفتها. وفجأة رن جرس الهاتف ممزقاً الصمت المخيم على القلعة. وسمعته سارة وهي في طريقها نحو الباب، فاستدارت وقفزت السلالم بسرعة لكي تجيب على المكالمة. واشارت الى كاتي التي كانت جالسة في المطبخ تقرأ كتاباً، ان تبقى في مكانها.

«الو!».

هتفت في السماعة لاهثة الانفاس. وكانت المكالمة لدهشتها من بيث.

«تبدين مضطربة».

علقت بيث بصوت فاتر.

«آسفة! قالت سارة واصابعها تتقلص على السماعة. كنت على وشك الخروج عندما رن الهاتف فظننت ان المكالمة هامة».

«ربما من لندن!».

قالت بيث بصوت بطيء تشبه نغماته صوت القطط، مما اثار الدهشة في نفس سارة. ولكن بيث تابعت قائلة:

«في الحقيقة اني كلمت هيو بالهاتف مساء البارحة. انه يحب عندما يكون غائباً ان اكلمه بالهاتف. قال انه سيعود الى البيت في وقت يسمح له بحضور الحفلة- التي اريد ان اكلمك بخصوصها. لقد التقيت بايان ماكنزي في سالن بعد الغداء. وذكر لي بانه يرغب في اصطحابك الى هذه الحفلة. ولهذا فقد شعرت بانه يجب ان اقول لك كلمة ترحيب».

من العجيب ان تبدر هذه البادرة من بيث! فهي ليست من النوع الذي يحب المساعدة. خصوصاً مساعدة فتاة غريبة لا تميل اليها. ولكن سارة ذكرت نفسها بانها قد تكون على خطأ وانه ليس من حق المرء ان يقفز الى مثل هذه النتائج بعد لقاء وحيد قصير.

«اشكر لك لطفك. ولكنني غير واثقة من قدرتي على تلبية دعوتك. اذ يجب عليّ اولاً ان اطلب اذناً من السيد فريزر. ثم ان بيدي مريضة، وجيل وصلت منذ فترة قصيرة فقط!».

«بحق السماء، ما دخل جيل في هذا الموضوع؟».

ولسعت اذنها ضحكة بيث الحادة.

«لست ادري ما يدعوك للقلق عليها. فهي تبدو سعيدة بصحبة صديقها الجديد، وهو فنان استأجر كوخاً قرب الشاطىء. هل هيو على علم بالموضوع يا ترى؟».

«لا شك انك مخطئة».

اجابت سارة بحدّة، وقد غمرتها موجة من الاستياء. ورفضت ان تصدق ما كانت تعرفه بالغريزة.

ضحكت بيث مرة ثانية. وبدا واضحاً انها استمتعت برنة الفزع في صوت سارة.

«اؤكد لك اني لست مخطئة! فلقد بدت لي جيل في احسن حال عندما صادفتها في طريقي قبل لحظات. وليس في هذا ما يدعو الى العجب لان آل فريزر ليسوا ممن يضيعون وقتهم. ألم تكتشفي هذا بعد؟».

«من فضلك!».

وسقطت سماعة الهاتف من يد سارة تحت وطأة انفعالها، وراحت تحدق بها وكأن مجرد لمسها سيلسعها. يجب ان تعيد الاتصال ببيث كي تعتذر. فلا شك ان بيث تتوقع منها ذلك. ولكنها لم تكن تعرف رقم بيث، ولم تجد لديها الوقت او الرغبة في البحث عنه.

غمر سارة شعور بالخطر. لقد ظنت قبل لحظات فقط ان مخاوفها لا تستند الى اي برهان. والآن؟ يجب ان تفعل شيئاً من اجل ان تساعد جيل، لكي تحذرها وتذكر لها بان بيث على علم بعلاقتها الرومانتيكية. وانه من المحتمل ان تخبر هيو. ووجدت سارة، وقد داهمتها موجة من المشاعر المتشابكة، أنها غير قادرة على توخي الامانة الكاملة مع نفسها.

يجب ان تحاول العثور على جيل مهما كلّف هذا من اجل ان ترى بنفسها فيما اذا كان هذا الفنان انساناً بلا ضمير، كما وصفه هيو، او رجلاً مقبولاً وصديقاً مسؤولاً. ولكن كم كانت غبية لانها لم تستطع الاحتفاظ بهدوئها ولم

تسأل بيث عن عنوان الكوخ الذي استأجره الفنان! وكرهت سارة ان تسأل كاتي عن هذا الموضوع ثانية، خصوصاً انها شكت في ان تسرع كاتي الى تزويدها بالمعلومات التي تريدها.

تركت سارة مكان الهاتف وهي تتنهد. ثم التقطت معطفها هامة بالخروج. وفجأة تذكرت الدعوة التي وجهها اليها ايان بالذهاب معه لزيارة مريض يقطن قرب الساحل بعد ان نزل من غرفة بيدي. وقد قال لها بان المريض يعيش قرب اطلال الكنيسة المهجورة. ولو ان بيث قد صادفت كلاً من ايان وجيل بعد الغداء في الطريق، فلا بد ان تكون قد رأتهما في بقعة واحدة، او في مكانين متقاربين. وقد ذكرت بيث بانها رأت ايان في سالن.

ساقت سارة سيارة الجاغوار وقد عاودتها الثقة. لا شك ان جيل قد استخدمت السيارة البيضاء الصغيرة التي تستعملها والدتها عندما تزور لوخ غويل. والتي توضع عادة في المرآب الخارجي، مما يفسر عدم انتباه سارة الى مغادرة جيل للقلعة.

توقفت سارة في القرية وسألت مجموعة من الاطفال كانوا يلعبون اذا ما كانت توجد في القرية مجموعة من الاكواخ التي تؤجر خصيصاً للزوار والسياح. وما كانت سارة تحب الحصول على المعلومات بهذه الطريقة، ولكنها شعرت انها افضل من السؤال في أحد الأمكنة او المقاهي. فالأولاد سيظنونها سائحة عابرة تبحث عن المأوى، ويطردونها من ذهنهم حال اختفائها عن انظارهم.

أخبرها الاولاد، بان هنالك مجموعة من هذه الاكواخ، الا ان معظمها تؤجر عادة في مثل هذا الوقت من العام. وكانت على وشك ان تشكرهم وتنطلق بسيارتها عندما قالت فتاة صغيرة:

«ان السيد مانسون الذي يسكن في نهاية هذا الشارع عنده كوخان، أجّر أحدهما الى رجل فنان. أما الكوخ الثاني فهو خالٍ، لأن الأمطار تنفذ من سقفه. فاذا كنت لا تبالين بالمطر، فان السيد مانسون سيؤجرك الكوخ الثاني...».

عجبت سارة للسهولة التي عثرت فيها على الكوخ في نهاية زقاق ضيق. لقد كان كوخاً قديماً بني قرب شاطىء النهر يكاد لقدمه يختفي في حضن المناظر حوله. وبدا الكوخ خالياً من الحياة فيما عدا حبلا من الدخان

الخفيف المتصاعد من بقايا المدخنة.

اقتربت سارة من الكوخ بحذر. وكانت قد تركت سيارتها بجانب رصيف الشارع الرئيسي خشية ان تتعرض للاذى فيما لو ساقتها عبر هذا الزقاق الضيق. ولم تكن تعرف ماذا ستقول او تفعل. وابتهلت وهي تقرع باب الكوخ ان تجد الكلمات المناسبة.

بعد عدة ثوان بدت لها عدة ساعات، فتح الشاب الملتحي الباب، ونظر اليها بدهشة. ولكنه جابهها من دون اضطراب البتة، وقال مجتراً كلماته:

«يا للمفاجأة! انك فتاة القارب. اليس كذلك؟ وسكرتيرة السيد فريزر، كما اعتقد».

وعلت وجهه ابتسامة ساخرة.

ولكن قبل ان تجد الفرصة للكلام سمعت حركة خفيفة وراء ظهر الشاب. ثم ظهرت جيل امامها وقد ارتسم على وجهها المتدفق حيوية، تعبير بالاشمئزاز الشديد. وحطت نظراتها على سارة وبدا جلياً انها لم تسر بمشاهدتها.

«انت مخطىء يا كولن. من الأصوب ان تقول عضو البوليس السري، سارة وينتون».

حدقت سارة فيها مجفلة. وأحست بنفسها غير قادرة على الكلام، ممزقة الاعصاب. ولكنها ادركت بعد ان التقت نظراتها بنظرات جيل بان الاخيرة انما نهجت نهج الدفاع عن النفس لكي تخفي جرح مشاعرها. واعترى سارة الاحساس بغتة بأنها دخيلة على الموقف. وكأنها كانت تقف خارج دائرة حطمتها عن عمد.

يجب ان تحاول افهام جيل وصديقها بانها انما اتت الى هنا من اجل ان تساعدهما، وليس بوصفها سكرتيرة هيو. وشعرت بغريزتها بان هذا الرجل هو الفنان الذي يعيش في لندن. وقد ادركت هذا لحظة ان فتح الباب لها.

«انا آسفة يا جيل. قد يبدو تصرفي لك مهيناً، ولكنني لم آتِ الى هنا من اجل التجسس. لقد جئت من اجل المساعدة ومن اجل ان احذرك. هنالك شخص على علم بوجود كولن هنا. وطبعاً لن تمضي مدة طويلة حتى يعرف هيو ايضاً».

«بيث اسكويث، دون شك! واحمر وجه جيل انفعالاً. هذه الكلبة

الحقيرة!».

«جيل! احتجت سارة محاولة ان تسيطر على انفعالها بجهد. انت تعرفين ان توجيه مثل هذه الاهانات لن يوصلك الى هدفك. ولن يشفع لك مثل هذا الاسلوب عند اخيك. لماذا لا ندخل ونجلس لنناقش الموضوع بهدوء؟».

أحست سارة للحظة، بان جيل كانت على وشك ان ترفض اقتراحها. ثم استدارت فجأة بهزة من كتفها وسارت الى الداخل، بينما تراجع كولن عدة خطوات الى الوراء لكي يتيح لسارة فرصة اللحاق بها.

لاحظت سارة ان غرفة الجلوس كانت نظيفة على الرغم من الفوضى التي سادتها. وشاهدت في زاوية من الغرفة حاملاً للوحات تحيط به ما يحتاجه الفنان عادة من انابيب الدهان والفراشي. وعلى الطاولة قرب النافذة، تربعت مجموعة من آلات وأدوات التصوير.

وأضفت النار المشتعلة في المدفأة على الغرفة جواً من الراحة، مخلصة اياها من الرطوبة.

جلست سارة باحتراس على طرف كرسي مقلقل جره كولن من اجلها من تحت الطاولة.

تكومت جيل فوق الكرسي الآخر. ونظرت الى كولن ثم الى سارة بعبوس. ثم قالت فجأة بلهجة اكثر حرارة:

«آسفة يا سارة! قد تبدو لك كل هذه الامور وكأنها سلسلة من المؤامرات والاكاذيب. انني احب كولن وهو يحبني. ونحن نرغب في الزواج. احياناً يندفع الانسان لقول الاشياء الخاطئة بحافز الدفاع عن النفس. لعلك لا تعرفين ان كلاً من هيو ووالدي لم يزعجا نفسيهما حتى بالتفكير بمقابلة كولن. لقد حكما عليه قبل ان يشاهداه لانه فنان. ويظهر انهما يظنان انه لا يجد حتى لقمة العيش!».

بذلت سارة محاولة ذهنية لكي تزن الامور حق وزنها. وتذكرت بانها يجب ان تلتزم الحذر على الرغم من تعاطفها مع جيل. ان هذه الفتاة اليافعة الشقية تملك قوة التأثير على سامعيها. وهي قادرة ان تخدع اي انسان اذا ما كرست ذهنها لهذا الغرض.

تنهدت سارة لاوية فمها، ونظرت الى جيل بأسى:

«لا شك انك قادرة على تدبير مثل هذا اللقاء بينهم. ما كنت لاظن بان الحذق والدهاء ينقصانك».

القت جيل على كولن نظرة سريعة وقالت:

«من المؤسف ان شخصاً ما نقل الى والدتي قصة غريبة عن كولن. وهي قصة غير حقيقية. ولكن امي رفضت ان تصدقني عندما حاولت ان اقنعها بكذبها. انت تعرفين كيف تتعقد الامور. بعد هذه المحاولة كرست كل جهودي لكي احول دون ان يلتقي هؤلاء الثلاثة. واعتقد ان هيو قد اصغى الى القصة كما روتها امي قبل ان يأتي الى هنا. وما كاد يراني حتى القى علي محاضرة طويلة، مما جعل الامور تزداد تعقيداً منذ ذلك الوقت».

«لماذا لا تبدأين بداية جديدة. بتقديمي الى صديقك؟ ربما نستطيع بعد ذلك ان ندرس الموضوع من جانب او جانبين».

٦ - أصابع بلا حنان

تناهى الى سارة أزيز النحل من خلال النافذة المفتوحة، يحمله النسيم النقي. وأحست وهي تصغي الى هذه الأصوات بالاسترخاء والنعاس يكادان يغلبانها مما جعلها تدرك بأنها متعبة. ولكن الجو في الكوخ الصغير كان مفعماً بالتوتر الى حد جعلها غير قادرة على الاستجابة للاسترخاء الحقيقي.

واعتراها فزع طفيف عندما لاحظت ان جيل كانت تجلس بلا حراك، تعلو وجهها المتمرد تقطيبة عميقة، وكأنها لم تستسغ اقتراح سارة. وساد صمت طويل مربك. وفجأة نهضت جيل هازة كتفيها بلامبالاة، واتجهت نحو كولن ثم جرته الى الأمام.

«اظن بأنني تصرفت بصبيانية، ودون تفكير. على كل، واذا كنت ما تزالين تصرين، فأنا اقدم لك كولن براون؛ المجرم الخطير من لندن».

نظر كولن من جيل الى سارة، وفي عينيه وميض من التسلية. ومد يده الى سارة ليصافحها. فشعرت بأنها تراه لأول مرة كما يجب. كان رجلاً طويلاً وبدا وجهه في النور الخافت نحيلاً غائراً. ولاحظت ان فمه كان مشدوداً رغم وقفته وسلوكه اللامتكلفين.

«ها نحن نلتقي رسمياً في النهاية، يا آنسة وينتون. يجب ان اعترف بأنني رأيتك مرة ثانية بعد اليوم الذي انقذت فيه حقيبتك. ولكنني ظننت انه من الحكمة الا اقترب منك. لعله كان من الأفضل ان ادرك بأنك ستكتشفينني ان عاجلاً او آجلاً. لا. وابتسم وهو يشد اليه جيل بحنان. اعتقد انك تتساءلين الآن ماذا ننوي جيل وأنا ان نفعل، واية مؤامرات

نطبخ في الخفاء».

«هذا اذا ما اخترنا الطريقة الفجة في التعبير، يا سيد براون».

وجابهت سارة عينيه الرماديتين اللامعتين. وابتسمت استجابة لابتسامته. واعجبتها طريقته الحازمة في المصافحة.

«اعترف بأنني قلقة نوعاً ما. قالت سارة. هل تعتبر فضولاً مني لو سألتك عن مهنتك بالضبط. هناك فئات عديدة للفنانين».

«لا ابداً. ابتدأت بالعمل في شركة كبيرة كفنان تجاري. ثم تركت الشركة وقررت ان اقدم خدماتي لجهات متعددة. كانت الأمور صعبة في البداية. ولكنني اعتبر ناجحاً في عملي الآن. واكرس معظم وقتي لرسم الشروح المصورة في الكتب، واحياناً ارسم المناظر الطبيعية. وفي الوقت الحاضر، انا اقوم برسم مجموعة من الطيور والحيوانات لشرح كتاب للأطفال عن مناطق الهايلاند».

«ولكنك قدمت الى هنا قبل ثلاثة اسابيع؟».

ابتسم كولن ابتسامة طافحة بالاستياء وشد اليه ذراع جيل.

«من اجل ان انجز بعض العمل قبل قدوم جيل. كان من القسوة ان اتركها وحدها في المستشفى ولكنها اصرّت. فأنا احب ان آخذ الصور لموضوعي قبل ان اشرع بالرسم. لأن هذا يساعدني على ضبط الألوان والتفصيلات. وعندما تكون جيل برفقتي فإنها لا تنقطع عن الثرثرة مما يفزع الطيور على بعد عدة اميال».

«والآن، هل تتوقعان ان تبقيا هنا بدون ان ينكشف امركما. لا بد ان يعرف هيو الحقيقة».

«لقد كانت مغامرة قررنا ان نخاطر بها. اعلنت جيل بتمرد. في البداية جاء هيو الى القلعة من اجل ان يصفي املاكه هنا. ن وكان ينوي البقاء مدة قصيرة. اما الآن فهو يفكر بالاستقرار هنا على الدوام. ولهذا فأنا اتوقع ان يكتشف امرنا يوماً ما».

قفز قلب سارة بعنف. اذا كان هيو قد قرر الاستقرار هنا، كما ذكرت جيل، فلعله يحتفظ بها كسكرتيرته، اذا ما احتاج الى واحدة. ولكن هل من الحكمة ان تقبل. وشعرت برغبة جنونية في ان تضمها ذراعاه مرة ثانية، ويعانقها بشدة.

سحبت سارة نفساً سريعاً، مرتجفة، طاردة صورة هيو من ذهنها.

«انني ما زلت ارى ان تصطحبي كولن لتقدميه الى هيو، يا جيل. من اجل ان تشرحي له قضيتكما بوضوح. ثم ان هيو لا يستطيع ان يمنعكما من الزواج لأنك تجاوزت الثامنة عشرة».

«ولكنني احب اسرتي، وأفضل ان احصل على الموافقة».

«يجب ان اسرع بالعودة. قالت ساره وهي تلقي نظرة سريعة على ساعتها. والا ارسلوا من يبحث عني. الساعة تقارب الخامسة. اقترح ان تتبعيني يا جيل. لعلنا نستطيع ان نصل الى قرار هذا المساء، بعد العشاء مثلاً».

«عاجلاً لا آجلاً! وافق كولن باقتضاب. وتبعهما الى باب الكوخ. فأنا لا استسيغ كل هذه السرية والكتمان».

سارت الأمور اثناء تناول العشاء على ما يرام. ولكن قبل ان تستطيع سارة الاجتماع بجيل لكي تقنعها بوضع خطة بناءة لحل المشكلة، وصلت بيث بصحبة صديقتين.

وبينما اخذت سارة تساعد كاتي في اعداد المزيد من القهوة، لاح لها انه ليس هناك ما لا يمكن حله باستخدام التفكير السليم. ان كولن براون يبدو عن قرب رجلاً لطيفاً. واذا كان قد ذكر الحقيقة فإن مستقبلاً لامعاً ينتظره.

ولم تشك سارة في انها قادرة على اقناع هيو بأن يتبنى رأياً اكثر مرونة، فيما لو سمحت لها جيل بأن تتحدث اليه في الموضوع بعد عودته. هذا لا يعني بأنها تلهف لأن تفتح معه مثل هذا الحديث. ولكن لا بد ان يحاول شخص ما ان يأخذ على عاتقه تسوية هذا الوضع المتشابك الذي خلقته سلسلة من الأخطاء وسوء التفاهم. وشعرت سارة انه من الأفضل ان يسمح لجيل بأن ترى كولن دون المزيد من المعارضة. لأن هذا من شأنه ان يعطيها الفرصة لكي ترى علاقتها الرومانتيكية به بمنظارها الحقيقي من غير هذه الهالة الدرامية الاصطناعية.

امضت سارة ساعة بعد العشاء في سكب القهوة وتقديم البسكوت دون ان تفرض نفسها على الحضور. مع ان بيث اسكويث كانت لا تزال تذكر مناقشتها الحادة في التليفون. فإنها لم تلمح اليها بشيء. بل على العكس بدت وكأنها تبذل كل ما وسعها من اجل ان تكون لطيفة مع سارة الى الحد

الذي دفعها الى ان تجدد دعوتها لها لحضور الحفلة باسلوب وجدت من الصعب معه ان ترفض الدعوة. ولكن كان اكثر ما اثار دهشة سارة هو سلوك جيل. وتعجبت لماذا راحت الفتاة تتزلف بهذه الطريقة الى بيث. وللمرة الثانية غمر سارة شعور عميق بالشك. الا انها في النهاية قررت ان تتوقف عن تحليلها للأمور. وبعد ان غسلت فناجين القهوة الفارغة، وتأكدت من ان بيدي كانت مرتاحة، ذهبت الى فراشها وهي تعاني من آلام الصداع.

في صباح اليوم التالي جاءت جيل لتبحث عنها في المكتبة حيث كانت تصنف بريد الصباح. كان الوقت يقارب الظهر. ولكن جيل كانت ما تزال تتثاءب من اثر النعاس، وكأنها لم تنم طوال الليل.

«انا اسفة يا عزيزتي. ولكنني اشعر بالتعب. قالت جيل محاولة ان تفسر بدون ان تدعو الضرورة. تأخرت بيث في الذهاب. ولما جئت لأراك وجدتك نائمة بعمق. كنت على وشك ان اوقظك. ولكنك بدوت كمن تحلم احلاماً لطيفة. هل كنت تحلمين بايان ماكنزي؟».

«جيل!».

واستدارت سارة لتنظر اليها نافدة الصبر، ورفعت شعرها الأشقر الطويل عن وجهها:

«لقد امضيت يوماً متعباً جداً البارحة مما جعلني اتأخر في النهوض هذا الصباح. قولي لي ماذا تريدين ودعيني اتم عملي هنا؟».

ما كانت سارة على ثقة بأن من حقها ان تتحدث الى اخت رئيسها بهذه الطريقة. لكنها اكتشفت انه من الأفضل مواجهة جيل بصراحة بدلاً من المداورة. الا انه لم يكن من السهل التخلص من جيل.

«ارجوك يا سارة، لا تغضبي مني. يجب ان اكلمك الآن لأن هيو قد يعود فجأة. وهذا تصرف ليس بالغريب عليه!».

بدت جيل جذابة ببنطلونها الواسع الأزرق. وتربعت على حافة مكتب سارة محدقة في وجهها بعينيها الواسعتين المتوسلتين.

«ان الموضوع يخص كولن. لا اريد هيو ان يعرف انه هنا، ليس الآن على الأقل. دعي الأمور تختمر قليلاً.. الى حين عودة والدتي على الأقل. ما رأيك؟».

«ولكن يا جيل ألا تعتقدين بأنك اذا استطعت استمالة هيو، فإنك تحلين بذلك العقدة الكبرى؟ ثم اضافت بصوت ذي مغزى. وماذا بشأن الآنسة اسكويث؟ انها تعرف ان كولن هنا، على الرغم من انه لا علم لها بالتفصيلات».

«اعرف. ولكني لا اعتقد بأنها ستفضح سري. اذا كانت تريد ان تتزوج هيو، فعليها ان تتعلم كيف تعاملني».

لم يكن من طبع جيل قبول اية معارضة.

«هل تظنين بأن بيث اسكويث ستدع امرأ صغيراً كهذا يقف في طريقها؟».

سألت سارة بجفاء، وقد اثارت امتعاضها الأنانية التي غلفت حجة جيل.

«قد تدهشين! لمحت جيل بدهاء. قد لا اكون اكثر من اخت هيو غير الشقيقة. ولكن والد هيو كان كوالدي. كما ان هيو شديد التعلق بأمي. وبالاضافة فأنا استطيع ان اقول له شيئاً او شيئين عن بيث».

«اسكتي يا جيل!. هل تعرفين ماذا تطلبين مني ان افعل؟ تريدينني ان اغمض عيني حين تذهبين لتقضي ساعات في كوخ برفقة رجل غريب؟ هنا في هذه الجزيرة التي يعرفك فيها الجميع؟ ولكن سواء افعلت هذا هنا او في اي مكان آخر فإن التصرف نفسه ليس اخلاقياً. وبالاضافة، فأنا اعتقد ان كولن يتفق معي بالراي».

«طبعاً. ردت جيل بسخرية. ان كولن يشابهك من حيث التعنت الاخلاقي. واذا ما داخلك القلق علي في هذا الشأن، فأنا انصحك بان تطمئني بالاً. لقد كلمني بالهاتف هذا الصباح ليقول لي بان اخته قد جاءت لتقيم معه مدة اسبوعين، مما يعني اننا سنكون تحت رقابة كافية».

ونظرت سارة الى جيل التي قفزت على قدميها. وقالت بصراحة:

«اذا كان ما قلته هو الحقيقة، فلن اذكر شيئاً امام هيو. ولكنني لن احاول ان اغطي على تصرفاتك عن عمد. انك لا ترغبين في الافضاء اليه بالحقيقة ولهذا فلا تتوقعي مني الشفقة اذا ما اكتشف الأمر عن طريق شخص اخر».

قبل ان تستطيع سارة ان تهضم خطر هذا الوعد الذي قطعته على نفسها

عاد هيو من لندن في مساء هذا اليوم بالذات، بعد الغداء. ودخل الى القاعة بينما كانت جالسة تتحدث الى بيث التي جاءت للزيارة من دون سابق انذار، متحججة بسبب واه، وبدت جيل التي امضت العصر خارج المنزل تعبة. وراحت تتثاءب وهي تقلب صفحات مجلة قديمة.

ولمحته بيث اولاً وهو يفتح الباب فهتفت:

«يا للسماء! لم نتوقع وصولك بهذه السرعة. هل تناولت غداءك؟».

«نعم».

اجاب باقتضاب مجيباً على ابتسامة بيث بمثلها. ولوت سارة عنقها لتنظر اليه، وهو يقترب من المدفأة وتنقلت نظراته بين بيث وسارة التي رأت صورتها تنعكس للحظة في عينيه السوداوين قبل ان يلتفت الى بيث قائلاً:

«لقد جئت بالطائرة برفقة ديكسون الذي صادف وجوده في لندن وجودي هناك».

«هل انت متأكد انك تناولت عشاءك؟».

سالت بيث مرة ثانية، وكأنها سيدة البيت كما لاح لسارة. وتنهد هيو بارتياح ثم جلس.

«لقد تناولت عشائي في كاراسينغ. ومع هذا فانا ارحب بفنجان من القهوة، اذا لم يكن في هذا ازعاج».

«لقد فرغنا لتونا من تناول القهوة».

قالت بيث بابتسامة دافئة وعيناها تلتمعان.

هبت سارة من مكانها، وسارعت الى صينية القهوة وكأنها حبل الأمان. لأنها ارادت ان تفعل اي شيء ينقذها من نظرات هيو الكاسحة.

«ساعد بعض القهوة من جديد. قالت بسرعة. ان كاتي لا تعمل هذا المساء. وقد ذهبت الى القرية مع صديقتها».

ولكن، لاستغرابها الشديد، وجدت هيو يقف بجانبها فجأة، متجاهلاً تقطيبة بيث. وتناول صينية القهوة من يديها.

«اسمحي لي! سآتي معك لكي اجلب القهوة بنفسي. هناك امر او اثنان اريد مناقشتك بشأنهما».

تمهلت سارة. ولكن جيل اثارت دهشتها عندما قفزت فجأة، واقترحت بابتسامة معسولة:

«لماذا لا تسمحان لي بعمل القهوة، بدلاً من ان تتنازعا يا هيو؟ ورفعت رأسها، وطبعت على وجهه قبلة مرحة. انا سعيدة بعودتك. واذا ما تبرعت باحضار هذه القهوة التعيسة، فقد تجلس وترتاح. ان شغلك مع سارة لا يمكن ان يكون على هذه الدرجة من الأهمية!».

لم يجادل هيو مما اثار دهشة سارة. ووضع صينية القهوة مسرعاً بين يدي جيل بطاعة وسلبية.

وراقبته سارة وهو يجلس مادا رجليه الطويلتين، ثم يتوجه بانتباهه كله الى بيث.

«لا شك انك في غاية التعب، يا عزيزي هيو».

قالت بيث بصوت يفيض بالشفقة وهي تنظر اليه بحنان.

«ولكن اذا ما اردت ان تناقش بعض الأمور مع الآنسة وينتون، فافعل ولا تهتم بوجودي».

عضت سارة على شفتيها، وقد فاض في نفسها نوع من الحقد اللاشعوري. يبدو انه يتلذذ بجعلها هدفاً لملاحظات بيث المؤلمة. ونظرت سارة الى هيو بغضب يائس لم تستطع له تفسيراً، حتى ادار وجهه باتجاهها. ورمقتها عيناه القاتمتان بسخرية افزعتها، وكأنه خمن ما كان يطوف في ذهنها. ووجدت سارة صعوبة في الاشاحة بوجهها. وغمرتها كلماته التي تفوه بها بغمامة من المشاعر.

«ما اريد ان اقوله للآنسة وينتون يستطيع الانتظار لخمس دقائق. سنذهب الى المكتبة ونتحدث بعد قليل».

احست سارة في كلماته رنة التهديد. بماذا يتهمها الآن؟ وارتعشت متسائلة لماذا يثير هذا الرجل الغامض في نفسها كل هذه المشاعر المعقدة.

«في اي وقت تشاء».

وافقت سارة بسرعة، وبابتسامة مقتضبة، كارهة ان تظهر ولو ذرة قلق واحدة، خصوصاً امام بيث. الا ان صوتها بدا لاهثاً. وداهمتها مئات من الشكوك.

وراحت تصغي الى هيو يتحدث الى بيث عن اصدقائهم ومعارفهم في لندن. وترك هذا الحديث في نفسها انطباعاً حسناً، فقد لاح ان هيو قد قضى وقتاً مفيداً، ولم يقابل اية كارثة كبيرة! وغمرها الارتياح عندما عادت

جيل اخيراً تحمل بعض القهوة.

«هل استلمت شيئاً من امي، يا هيو؟».

وابتسمت ثم جلست بجانبه لكي تسكب القهوة.

«لقد اتصلت بها من لندن. قد تعود من الخارج قريباً، ربما بعد اسبوعين».

لاحظت سارة الاحمرار الذي كسا وجنتي جيل التي احتجت بغضب:

«كان احرى بها ان تكلمني بالهاتف. فهي لم تتصل بي منذ ان سافرت. لماذا كلمتك انت بدلاً مني؟».

«لقد كلمتني بشأن بعض الأعمال. اجاب هيو محاولاً تهدئتها، وشرب قهوته كلها مرة واحدة. ثم ملأ الفنجان ثانية. وكنت انا الذي اتصلت بها».

«لا شك انك ستسمعين عنها في القريب العاجل. قالت بيث مقطبة الجبين وبابتسامة تأنيب جعلتها تبدو اكبر من سنها. انت تعرفين ان لديها الكثير مما يشغل ذهنها».

«اثناء اجازتها؟».

ردت جيل وهي ترمق بيث بنظرة مكفهرة.

وضع هيو فنجانه، وقال بحزم.

«انت تعبة دون شك يا جيل. فالوقت متأخر الآن. ونظر الى ساعته. لقد ذكرت بيث قبل قليل بأن الوقت قد حان لذهابها. أما انا فاريد ان اقول شيئاً لسارة. ارجو ان تذهبي الى غرفة المكتبة يا سارة وتنتظريني هناك. سألحق بك بعد ان اودع بيث».

اشاحت سارة وجهها عنه بسرعة. ووقفت على قدميها. ثم تمهلت لحظة لتقول:

«اذا لم يكن عندك مانع، فسأذهب لأرى بيدي اولاً. ساعود بسرعة».

صعدت سارة الدرج بسرعة لترى فيما اذا كانت بيدي تحتاج الى اي شيء. وكانت قد اخذت لها بعض الحليب والبسكوت حوالى الساعة التاسعة. ووجدتها الآن على وشك الاستسلام للنعاس. وسرها كثيراً ان تسمع بأن هيو قد عاد الى البيت.

«اشعر بالامتنان لعودة السيد هيو سالماً. هتفت قائلة. انا لا احب هذه

الآلات الطائرة».

وابتسمت عندما سوت الاغطية فوقها بلطف ثم اطفأت النور.

«كيف حالها؟».

سأل هيو عندما دخلت سارة الى غرفة المكتبة واغلقت الباب. كان واقفاً قرب المدفأة ويداه خلف ظهره. واعتراها شعور غريب بعدم التكافؤ عندما سار بضع خطوات الى منتصف الغرفة.

«في تحسن. ان الراحة في السرير قد نفعتها كثيراً».

فكر هيو فيما قالته للحظة، ثم سأل:

«هل استطاع طبيبنا الطيب ان يصنع حبوباً سحرية؟ او هل نجح فيما اخفق فيه غيره؟ لم يسبق لي ان سمعت ان بيدي لزمت الفراش من قبل!».

فتمتمت سارة بوداعة واستحياء:

«ربما يكون قد جمع بين الاثنين».

كرهت سارة ان تقول له بأن ايان جاء لزيارة بيدي كل يوم خلال غيبته، مما جعل بيدي تعتقد بأن حالتها كانت أسوأ مما ظنت. وهذا بالطبع دفعها الى ملازمة الفراش!.

«اظن ان بيدي بحاجة الى اجازة بغض النظر عن مرضها. يبدو انها لم تأخذ واحدة منذ سنوات. وادارة مثل هذا البيت ورعايته يتطلبان مجهوداً كبيراً دون شك!».

«طبعاً».

قال هيو بنزق، وبدا كمن فقد الاهتمام بالموضوع وشرد ذهنه الى امور اخرى.

تحركت سارة قلقة وقد داهمها شعور بالارتباك. وراح نسيم الليل المتسرب من النافذة يحمل اليها آلاف الروائح المختلفة وصوت البحر البعيد. وفجأة احست بالاجهاد، واعتراها ما يشبه الغيبوبة نتيجة للتعب والصراع العاطفي. ونظرت الى هيو بانتباه وهي في انتظار ان يتابع كلامه، حتى كادت ملامحه تنطبع تماماً في ذاكرتها. ثم قالت لتحثه على الافضاء بما يريد:

«لم تسألني القدوم الى هنا من اجل التحدث عن بيدي؟».

«لا. ولكنك لا تبدين في حالة تسمح لك بمتابعة اي نقاش. ماذا فعلت

بنفسك اثناء غيابي؟».

ترددت سارة للحظة، ولم تعرف بأن النور فوق رأسها كان ينعكس مباشرة على وجهها مجسماً كل زواياه. وكانت ترتدي ثوباً اسود من الجرسيه بقبة مفتوحة، مما اظهر بياض جلدها ورقة عظامها النحيلة. وكان شعرها منساباً متهدلاً كغلالة من الحرير فوق كتفيها. وقالت بصوت رنت فيه نغمة الاحتراس:

«اعترف بأنني كنت مشغولة. ولكن ليس هنالك ما يستدعي الاهتمام».

«فهمت».

وسار الى حيث كانت واقفة في وسط الغرفة.

«دعيني ارى كم كنت مشغولة».

ورفع ذقنها وراح يتفحص الظلال الباهتة على خديها المضرجين. واصابعه ما زالت تحتفظ باللمسة القاسية نفسها.

«من فضلك!».

احتجت سارة بصوت منفعل. ولكنها لم تستطع ان تتزحزح. واختلج وجهه بنظرة عدائية حسية. فقال فجأة وهو يهز رأسه عابساً:

«انك تبدين جميلة جداً... ومغرية».

«قد تظنني جميلة. ولكنك لا تستلطفني. اليس كذلك؟».

واسودت عيناه اذ اجاب قائلاً:

«انا لا احب الطريقة التي تؤثر بها المرأة على الرجل؛ اذا كان هذا ما تعنين».

«هذا شيء مختلف».

«كم تحب النساء ان يعقدن المسائل، انهن ولدن من اجل خلق المشاكل».

«انك لا تستطيع ان تصنفنا كلنا تحت عنوان واحد. ان بعض النساء قادرات على منح السعادة العميقة للرجال».

«لا. اعترض بلهجة ناعمة. العكس عادة هو الصحيح. ان على الرجل دائماً ان يبذل كل المجهود. اما بالنسبة اليك، فإنني اظن بأنني لا اميل اليك او استلطفك. ولكن يجب علي ان اتحملك الى حين انتهائنا من

مهمتنا هنا».

وقف على بعد عدة سنتيمترات منها فقط. ورمقتها عيناه بانتقاد، متنقلة فوق عظام عنقها وكتفيها الرقيقة.

«كل هذه الحساسية والقابلية للعطب... اعتقد ان موت والديك قد سبب لك هذا».

هبت سارة واقفة وكأنها قد سمرت في مكانها، وقد حرمتها الصدمة من القدرة على التفكير. كيف اكتشف الحقيقة؟ لماذا يعاملها بهذه الطريقة؟ وتحركت يداها بتشنج محاولة ان تدرأه عنها، وتعبر عن اشمئزاز لم تستطع ان تجد الكلمات القادرة على وصفه.

«كيف وجدت الحقيقة؟ كيف تمكنت من ايجاد الحقيقة؟».

وانقبضت حنجرتها اذ احست بالألم يجيش في نفسها كجرح فتح من جديد.

امسك هيو بها، فأحست بقبضته على ذراعها تسبب لها من الألم ما يوازي الألم الذي اجتاح قلبها. ورفع رأسها حتى اجبرها على النظر اليه. الا يملك ذرة من الرحمة؟ واحتوتها عيناه السوداوان:

«لقد قلت لايان ماكنزي، كان والدي طبيباً. كان... بالقلم العريض. من المحتمل ان ايان لم يلاحظ. ولكن الأمر اثار فضولي».

«ولهذا حاولت التدخل فيما لا يعنيك».

«تماماً».

«كيف؟».

«رأيت صديقتك جين هذا الصباح قبل ان اترك لندن. كان عندي موعد مع جيمس كار».

«لم يكن بخصوصي بالتأكيد؟».

«كنت قد صممت على معرفة الحقيقة، ووجدت جين هناك فاغتنمت الفرصة».

كان الهواء بينهما مشحوناً بالكهرباء والغضب المتأجج. وقالت سارة:

«لقد ظننت بأن والدي اجبر على التخلي عن مهنته، اليس كذلك؟ وشككت في ان يكون هناك شيء مشين في الموضوع».

فرد هيو بصوت مفعم بالغيظ:

«هذا لا يهمني على الاطلاق. انما اردت ان اعرف ما الذي يجعلك تتكتكين كالساعة. وما تخفيه هذه الواجهة من الحساسية المرهفة المثيرة. وظننت ان السبب قد يكون رجلاً. . . قصة حب تعيسة. فلقد افلحت منذ قدومك الى هنا في ان تستثيري خيالك بشكل لا يستساغ».

علت وجه سارة نظرة بعيدة نائية اذ اخذ برود عميق يزحف الى شعورها:

«والآن بعد ان انتهيت من عملية البحث والتحري، واستطعت ان تحل اللغز، فانك قد فقدت الاهتمام بي من غير شك».

ضحك هيو ضحكة قصيرة. وضاقت عيناه اللتان كانتا تتفحصان وجهها الأسي بانتباه ويقظة:

«لن اقول هذا. ولكن علينا اولاً ان نحاول تخليصك من عذابك الداخلي».

وهزها برقة:

«سوف تتغلبين على فجيعتك. لقد كانت تجربة مريعة. ولكن عليك اولاً ان تهبطي الى الاعماق المجردة، ثم تبدأي من جديد. لن تستطيعي معرفة السكينة الا اذا واجهت فجيعتك وجهاً لوجه».

حاربت سارة فيضان دموعها اللاسعة وقالت:

«ان فلسفتك تدهشني، وقسوتك ايضاً».

فرد بابتسامة ساخرة لا تخلو من العطف وهو ينظر الى خديها المحمرين:

«الحياة تمضي بنا يا سارة. واذا ما اردت ان ترافقي موكب الحياة فعليك ان تتعلمي كيف تعيشين مع احزانك، لا ان تدعيها تجرفك».

«انت تدعي بأن الحزن لفقد الوالدين هو غير طبيعي؟».

«طريقتك في الحزن. . . نعم. لقد لاحظت هذا منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. كان هنالك شيء يتآكل بنفسك. . . . وقد وشت به عشرات من التصرفات الصغيرة والأشياء العابرة».

وهي التي ظنت بأن احداً لن يستطيع ان يحزر! وفاضت بها كاس المرارة فصرخت:

«اكرهك لانك سألت جين».

هاجمته سارة دون وعي. وهي تشعر بأنها عزلاء ضد منطقه القاسي.

وراحت عيناها تتلألآن، ولكن الدموع لم تسقط منها.

«لقد قلت لها بأنني قد بدأت اتحسن. ولكن بعد هذا ستعود للقلق علي».

«عندما تركتها بدت مسرورة. وقد تكلمنا معاً».

«آه فهمت. . .».

قالت سارة وقد اتسعت عيناها تحت وطأة الارتباك الذي داهمها. لم تتوقع هذا منه. هل تجرؤ على سؤاله عما حدث؟ ولكنها ربما تستطيع التخمين. إن جين دون شك اضطلعت بالجزء الأكبر من المحاورة دون ان تحتاج الى سؤال ذكي بين الحين والآخر. والنتيجة الآن هي ان هذا الرجل القاسي القوي الارادة قد اصبح عليماً بتفاصيل حياتها منذ المهد. لأنها بالنسبة الى جين هي الابنة التي لم يكتب لها ان تنجبها، والتي لن تلدها ولو تزوجت مرة ثانية.

تحركت سارة كالمنومة. وعيناها الواسعتان الزرقاوان تعكسان توسلاً لاشعورياً وتنشدان التعزية والسلوان.

وتابع هيو، طاحناً الكلمات:

«ان ما تحتاجين اليه الآن هو ثورة عاطفية من نوع آخر. تجربة اكبر من ان تستطيعي مجابهتها، تجربة تكتسح بقايا مشاعر الاشفاق على النفس التي تتمسكين بها بكل هذه الصلابة».

«مثلاً. . .؟».

حدق هيو في سارة وقال بسوداوية:

«ان الثورة العاطفية توصف عادة بعلاقة حب. ربما من الأفضل ان تركزي اهتمامك على ايان ماكنزي الذي لن يبدي اعتراضاً بالتأكيد. احياناً، حتى انا اجدك جذابة وساحرة».

انطلقت يد سارة باتجاه هيو دون ان تستطيع لها منعاً. ولكن قبل ان تصل الى وجهه الساخر امسك بها في قبضته الجامدة. وشدها الى الأسفل مسبباً لها الألم الذي ارادت ان تسببه له.

«لا استطيع ان افهمك!».

قالت لاهثة تكاد تشهق بالبكاء. وغلبها الوهن والضعف. ثم احست بيده تمسح على ذقنها. ان تأثير الصراع في هذه الساعة المتأخرة اخذ يبدو

واضحاً عليها. ولاح وجهها شاحباً مجهداً. ولما ادرك هيو مقدار تعبها، تغير التعبير المرتسم على وجهه، وتراخت يداه. وصرخ صرخة مكتومة وهو يدفع بها بعيداً عنه الى كنبة كبيرة. ثم سكب لها قدحاً من الماء ووقف بجانبها حتى تجرعته كله، وعلت وجهه ابتسامة خفيفة اختفت تحتها تقطيبته، قال بلهجة كالحة:

«يبدو انك قد نجحت على الأقل في تجرع كأسك دون ان تشرقي او تسعلي».

«لست طفلة».

قالت سارة، ثم اكملت تجرع كأسها، لا لانها عطشى، ولكن لأنها ارادت بأية طريقة ان تسترجع تمالكها لنفسها. وبعد فترة قصيرة قال هيو بسخرية:

«والآن، يا صغيرتي، اذا لم يكن لديك مانع، فأرجوك ان تغادري الغرفة لأن لدي بعض ما اريد انجازه هنا».

«ولكنك قلت... بأن هنالك بعض الأمور التي تريد ان تناقشها معي».

فأجاب هيو بابتسامة متهكمة، مطلاً عليها من علو:

«كان هذا مقصدي قبل ان احيد عن الموضوع، وادخل في تشعبات لا صلة لها به، اما الآن فأنا انوي التخلص منك قبل ان يحدث هذا مرة اخرى. لقد عاد اللون الى وجنتيك الآن، ولكنني لا اريد ان يغمى عليك او أي شيء من هذا القبيل هذه الليلة. غداً ستتاح لنا الفرصة لمناقشة شؤون العمل ما حلا لنا».

ومد لها يده بحركة مهذبة بحتة ليساعدها على النهوض. ولكنها اختارت ان تتجاهلها، ووقفت تترنح على قدميها. كانت عضلاتها ما تزال ترتعش قليلاً.

«ما رأيك، هل استعادت جيل صحتها الآن؟».

تعثرت سارة مجفلة وهي في طريقها الى الباب. كانت على وشك ان تلقي عليه تحية المساء عندما هبط سؤاله فوق رأسها المجهد التعيس. ولم تستدر اليه وهي تتمتم: «نعم»، محاولة ان تحجب عنه وجهها. وشعرت سارة بأنه حتى ولو توقفت حياتها على قول المزيد لما استطاعت.

«حسناً، لا داعي لأن تتصرفي وكأنك قد اصبت برصاصة في الظهر. في الحقيقة لقد فكرت ان اصطحبها معي الى ايونا غداً. استطيع ان اخلط النزهة ببعض العمل لكي لا اضيع الوقت. هل سبق لك أن ذهبت الى ايونا؟ هل تحبين ان تأتي معنا؟».

التفتت سارة اليه نصف التفاتة بعصبية. وبدا جانب وجهها مشدوداً متوتراً. كانت متأكدة ان جيل لن ترغب في الذهاب دون كولن. ولكن هيو لا يعرف بوجود كولن هنا. وقد وعدت سارة الا تخبره. انها ورطة! لماذا، بحق السماء، وافقت على ان تحتفظ بسر جيل؟ لماذا لم تملك من حدة الذهن ما يجعلها تتبين ما يعنيه ويتضمنه مثل هذا الوعد؟

«لماذا... لماذا لا نترك الحديث في هذا الموضوع حتى صباح الغد؟ انت تعرف جيل. من المحتمل ان تكون قد رتبت مشروعاً اخر. فأنت لم تحدد موعد عودتك».

عندما استيقظت سارة في الصباح رأت وهي تأخذ حماماً سريعاً بأن كلماتها الأخيرة خير ما امكنها ان تقوله. وسارعت الى ارتداء ثيابها آملة ان تعثر على جيل، وتخبرها بنوايا هيو قبل ان تجتمع بها. اذا كانت جيل لا تريد ان تذهب الى ايونا، فعليها ان تحاول الافلات معتمدة على نفسها، شارحة اعذارها من دون مساعدة. فهي لا تريد ان تضيف جريمة اخرى الى قائمة جرائمها فيما لو اكتشف هيو الحقيقة.

لم تجد جيل في غرفتها. ودهشت سارة عندما هبطت الى الاسفل لتجد ان جيل قد انتهت من تناول فطورها تقريباً. وقالت لسارة بأنها خرجت لركوب الخيل برفقة هيو في الصباح الباكر، وانها قررت مرافقته الى ايونا.

«بهذه السهولة؟ وانا التي قضيت ليلة بأكملها اقلب الامور دون ان استطيع النوم؟».

«ولم لا؟ الحقيقة يا عزيزتي سارة هي ان اخت كولن ليست من النوع الذي أبه له. كل ما تريد ان تفعله طوال النهار هو التجول في البراري. وهي مجنونة، ككولن، بمراقبة الطيور. ولكن لاسباب مختلفة».

«مثلا...؟».

«تعرفين ان كولن يذهب لمراقبة الطيور من اجل الحصول على الصور اللازمة لعمله. وهو الآن قد حصل على كل الصور التي يحتاجها،

ويستطيع ان يعود الى لندن وينهي لوحاته هناك. الا ان غوين تصر على ان يرافقها. اعتقد انه اصيب بالعدوى».

«اية عدوى؟».

«مراقبة الطيور! اجابت جيل بغيظ. لا تبدين حاضرة البديهة هذا الصباح، اليس كذلك؟ حسناً، لقد قال كولن لاخته، دون ان يسألني، بأنه لا مانع لديه من مرافقتها. ولما عرفت قلت له بأنني شخصياً اعترض. ولكنك لا تعرفين كولن».

«وكيف استطيع؟ اجابت سارة باحتراس. اننا لم نتقابل الا مرة واحدة. ولكنني ظننت بأنك تحبين كولن!».

«طبعاً احبه، ولكنني لست جاهلة باخطائه. انه يناقش طويلاً. وهو عنيد جداً. انه مجنون، مثلك، بضرورة اخبار هيو. لقد امضيت دهراً البارحة لاقنعه بالعدول عن الفكرة. اما الآن فهو يحتج بأننا اذا ما كنا بحاجة الى الاجتماع فعلينا ان نراعي اخته».

هذا التصرف يليق بكولن! قالت سارة بصمت محاولة ان تخفي ابتسامة، لقد اعجبها تصرف كولن. كلما عرفت سارة المزيد عن كولن مالت اليه. ان جيل فتاة افسدها التدليل. ولا شك انه من مصلحة كولن الا يشارك في تدليعها، ان بعض المعارضة لاهوائها لن يضرها.

«ولهذا فقد قلت لهيو بأنني ارحب بالذهاب معه الى ايونا بعد الغداء. كل شيء على ما يرام. كاتي ستعتني ببيدي. وكولن سيعتني باخته، اما هيو العزيز فسيعتني بك وبي».

واتكأت جيل على ظهر مقعدها وقالت بخفة:

«اذا ما لعبت اوراقي كما يجب، فقد اكتشف لماذا ذهبت امي الى امريكا، وماذا تفعل هناك؟».

«لماذا لا تحاولين ان تنسي مشاكلك يا جيل، هذا العصر فقط!».

«حسناً! قالت بابتسامة قوية، وقفزت على قدميها. آسفة يا سارة، اعدك بأن اسلك سلوكاً طيباً اذا ما وعدت بأن تصرفي انتباه هيو عني الى حين عودتي من زيارة كولن. يجب ان يفهم بأنه ملكي هذا الصباح. تستطيع غوين ان تفعل ما تشاء به بقية اليوم».

٧ - أشكال العذاب!

كان الجو جميلاً عندما غادروا القاعة حوالى الساعة الواحدة ظهراً بعد ان تناولوا غداءهم مبكرين. وساق هيو سيارة اللاندروفر، وجلست جيل وسارة بجانبه. كانت هنالك مجموعة من الاشياء مبعثرة هنا وهناك في مؤخرة السيارة ذكرت سارة بأول يوم لها في الجزيرة. ولكنها لم تعبأ بالفوضى هذا النهار. فعلى الرغم من انه لم يمض على قدوم سارة الى الجزيرة الا بضعة اسابيع، فقد بدأت تفقد شيئاً من حساسيتها للترتيب والتنسيق الصارم.

ولدهشتها وجدت ان هيو ما زال يتذكر هذا اليوم ايضاً اذ علق مازحاً:

«بدت خيبة الأمل واضحة على قسماتك ذلك اليوم».

وابتسم بشقاوة.

«لا عجب في ذلك! قالت جيل هابة للدفاع عنها. فهذه السيارة العجوز تبدو دائماً مثقلة بالخردة والروائح الكريهة. وهي طبعاً ليست مكاناً للشخص الأنوف».

ضحكت سارة. واحست بالانتعاش لأن مزاج جيل كان مرحاً هذا العصر. وقالت بسرور:

«اعتقد ان الخردة مفيدة احياناً».

طوال الطريق الممتد على الشاطىء الغربي، راحت جيل تثرثر بمرح عن لندن، بينما جلست سارة في مقعدها مكتفية بالتطلع ا الى المناظر التي لا بد ان يكون مرافقها قد شاهدها مراراً.

وسرها ان تجد ان هيو كان اكثر من ند لاخته، وانه اظهر براعة في الرد على ملاحظات اخته الماكرة، خالطاً اجوبته ببعض الملاحظات المنطقية بين

الحين والآخر. واكتشفت سارة انه على الرغم من تصرفاتها الطفولية، فإن جيل قادرة على التفكير بذكاء لماح اذا ما شعرت بالرغبة في ذلك. وتساءلت في نفسها فيما اذا كانت جيل قد فكرت في ان تدخل ميدان العمل يوماً ما. فإن اختيارها لمهنة مناسبة قد يساعد على تجنيد كل حيويتها لاشباع ميولها بشكل اكثر فعالية. لعل جيل، مثلها، قد تمتعت دائماً بنوع من الحماية الأسرية التي عاقت نضجها، كما لمح هيو الليلة الماضية. انه من المؤسف انه لا يطبق نظريته بشأنها على اخته ايضاً. وشكت سارة في ان يصف هيو لاخته الدواء نفسه الذي وصفه لها.

بعد ليلة البارحة الممطرة، تلاشت الغيوم من الغرب وبدت السماء صافية. وخلعت سارة معطفها لأن الحرارة اصبحت لا تطاق داخل السيارة التي راحت اشعة الشمس تضربها بسهامها.

«من الأفضل ان لا تنسي معطفك عندما تترك السيارة». قال هيو ملقياً عليها نظرة سريعة وهي تحاول التحرك في المقعد المحشور. «قد تحتاجين اليه فيما بعد».

«لن انساه».

تمتمت قائلة وهي تستدير لتضع المعطف خلفها.

احست سارة بالارتياح عندما عبروا قرية صغيرة، ومروا بحجر ضخم قائم بين بيتين دفع هيو الى الافضاء بشرح قصير.

قال انه في القرن الأخير جاء زوجان شابان ليقضيا ليلة العرس في ذلك المكان. ولكن عاصفة شديدة هبت في تلك الليلة، فهبطت صخرة عظيمة من التلال فوق البيت بمن فيه.

ارتعشت سارة عندما توقف هيو عن الكلام مفكراً. ولكن جيل هزت كتفيها، وقالت باستخفاف:

«ان هيو يمارس هوايته كالعادة، بحق السماء، لا تشجعيه يا سارة، والا كتب علينا ألا نرى ابونا هذا اليوم!».

فأجاب هو بجفاء من فوق رأس سارة ضاغطاً على البنزين:

«هل تتعلمين كيف تبدين مشاعر الشفقة احياناً؟».

«ولكن ليس الهوس بالماضي».

«ان الزمن لا دخل له في الموضوع. فهذه القصة تعتبر مأساة في اي

عصر».

تنشقت جيل قائلة:

«ولكنك ذكرت ان الزمن يساعد الانسان على التغلب على معظم الأشياء».

«بالضبط، ولكني لم اعن ان المرء ينسى بالمرة».

احست سارة وهي تصغي الى حوارهما، بأن لهذا الحوار صلة بمناقشة سابقة بينهما حول كولن. فشعرت بعضلاتها تتقلص خوفاً. ان المرء لا يعرف ماذا يتوقع من جيل ان تقول او تفعل. وعلى الرغم من انها قد وعدت بأن تسلك سلوكاً حسناً، فليس هناك ما يضمن انها ستفعل. لا شك انه من الصعب على جيل الغارقة في الحب ان تحاول اخفاء عواطفها على الدوام، ولكن الذنب ذنبها الى حد ما لأنها اختارت ان تخفي علاقتها بكولن، بدلاً من ان تحاول البحث عن حل للمشكلة.

وبينما راحا يتناقشان، احست سارة بوجود نوع من الرفقة الحميمة بينهما، مع شيء قليل من الفهم الصحيح. وغلبها الارتياح عندما حول هيو مجرى الحديث فجأة، وكأنه قد تعب من الخوض في الموضوع نفسه.

اعجبت سارة بمناظر الطرف الجنوبي من جزيرة «مل» التي لاحت جبلية وعرة. ولكن جيل نظرت بملل عندما حاولت سارة ان تلفت نظرها الى المنظر، ولم ترد.

«يجب ان تأتي يوماً لاستكشاف هذه المنطقة كما ينبغي».

قال هيو وقد سره اهتمام سارة، ولكنها تساءلت فيما اذا كان سيذكر وعده، ام سيكون مصير هذا الوعد مصير وعده السابق بالخروج لمراقبة الطيور.

ارادت جيل ان يتوقفوا في قرية على الشاطىء، واحتجت عندما اصر هيو بأنه لا وقت لديهم، فشرح قائلاً:

«لقد وعدت ان اقابل جون فيتلي في الساعة الثانية. ولا اريد ان اجبره على الانتظار».

نظرت جيل اليه غاضبة وقالت:

«لم تسأل بيث الخروج معنا اليوم؟».

واحست سارة بأن جيل ابدت هذه الملاحظة بغرض الانتقام من هيو واغاظته.

«لقد جاءت ملاحظتك متأخرة بعض الشيء. ولكن اذا ما اردت بعض الايضاح، فإنها مشغولة بالاستعداد للحفلة. وستأتي للعشاء هذه الأمسية».

احست سارة ببرودة مفاجئة، وقررت بابتئاس ان هيو لا بد ان يكون قد وجه الدعوة الى بيث عندما خرج ليودعها ليلة البارحة.

«هل سيأخذنا جون فينلي في قاربه كالعادة؟».

«انه يحتاج الى العبور هو شخصياً، ولهذا سيرافقنا».

سرحت عينا سارة الى الساعة الذهبية حول رسغ هيو القوي الأسمر، بينما راحت تفكر في السرعة اللاهثة التي غيرت بها جيل الموضوع عندما اشار هيو الى الحفلة. هل السبب هو ان جيل لا تريد ان تحضر الحفلة؟ وشعرت سارة بأنها هي ايضاً تود لو تستطيع تجنب اللحظة التي سيكتشف هيو فيها انها ستحضر الحفلة مع ايان ماكنزي. لقد اتصل بها ايان مرة ثانية هذا الصباح، واضطرت الى قبول دعوته كارهة لأنها لم تستطع ان تجد عذراً مناسباً تقدمه له. ووجدت سارة انها من بعض النواحي تتطلع الى حضور هذه الحفلة. ولم تستطع ان تجد سبباً لترددها، الا اذا كان منبعه الخوف من ملاحظات هيو المبهمة.

في بلدة فيونفورت قابلوا جون فينلي: رجلاً اكبر سناً من هيو، اخذهم الى ايونا في قاربه الصغير.

همست جيل لسارة بينما كان الرجلان يتبادلان الحديث:

«انه كاتب من نوع ما، يكتب في حقل الافلام الوثائقية وتواريخ الحياة. هذا النوع من الكتابات التي لا تدر عليه ربحاً كبيراً. وقد استأجر كوخاً صغيراً، كما فعل كولن، اول ما قدم الى هنا. ثم ابتاع بيتاً متداعياً. وصادف ان كان هيو هنا في ذلك الوقت فساعده على تحويل البناء الى مكان يصلح للسكن. ولهذا كلما عزمنا على الذهاب في رحلة يصر على تقديم خدماته. لا تدعي هيو يعرف ما قلته لك لأنه لا يحبني ان اتكلم في هذا الموضوع».

«فهمت...».

كان المضيق ضيقاً، ولما عبره القارب اجتاز المسافة القصيرة نحو المرسى وتوقف. وساعد هيو سارة على مغادرة القارب المتأرجح بنظرة ودية من عينيه.

ولما فارقوا المرسى ساروا عبر القرية الى الكاتدرائية. بدت القرية هادئة لأن معظم زائريها اليوميين قد غادروها. سار هيو بقامته الفارعة وراء الفتاتين لافتاً انتباههما الى المعالم الهامة، شارحاً لهما بعض المعلومات التاريخية.

لم تستطع سارة ان تستوعب كل ما سمعت. فابتسمت مقلّصة وجهها، وعيناها تومضان، وقالت:

«لن اتذكر نصف ما قلته لنا. اخشى ان أضطر الى شراء دليل سياحي».

«بامكانك ان تفعلي ذلك بالطبع. الا انك ستجدين كثيراً من الكتب الجذابة والمشوقة حول ايونا في مكتبة لوخ غويل».

اخذت جيل تتلكأ في الخلف. وبدا عليها الضجر التام. وقالت متشكية عندما سألتها سارة عما الم بها:

«لقد اتيت الى هنا مراراً في السابق».

«مرة واحدة».

اجاب هيو رافعاً وجهه العابس بصبر نافد قبل ان تستطيع سارة ان ترد.

«ثم انك قد تأتين الى هنا مئات المرات، ومع ذلك تكتشفين ناحية لم تعرفي عنها شيئاً من قبل».

«ولكن كل شيء هنا قديم جداً! احتجت جيل غاضبة. وانت تعرف بانني لم اهتم مطلقاً بالتاريخ في المدرسة او خارجها. خذ هذا المدفن مثلاً... واشارت بيد آمرة الى مقبرة اوران. عندما كان عمي ديفيد حياً كان لا يمل او يتعب من ترديد هذه المعلومات وغيرها على مسمعي عندما كنت طفلة. وهذا ما يجعلني اتذكرها جيداً. ان عقلي يوشك على الانفجار عندما افكر في هذا الموضوع».

كان تعبير جيل مضحكاً الى الحد الذي كاد يدفع هيو الى الابتسام رغماً عنه. ولم تدهش سارة عندما اعلنت جيل بعد ذلك بأنها تفضل ان تذهب الى الفندق لكي تجد شخصاً تتحدث اليه.

«سأراكما هناك».

هتفت وهي تلوح لهما بلا اكتراث، مبتعدة.

شرح هيو لسارة بأن جون فينلي ينوي قضاء العصر مع صديق جاء

ليعيش على الجزيرة قبل مدة قصيرة. وسارا معاً باتجاه الكاتدرائية في الشارع الذي كانت تسير فيه مراكب جنازات الملوك والزعماء قبل ان تحمل جثثهم الى مقرها الأخير.

بهرت سارة بروعة الكاتدرائية وتسارعت نبضاتها. فهي على عكس جيل، تستجيب على الدوام لجمال الأبنية القديمة وللأجواء التي تعشش فيها. ولهذا فإن نظرتها الأولى للكاتدرائية التي انحدرت فوقها اشعة الشمس مؤلقة احجارها الغرانيتية الوردية جعلتها تتسمر في ارضها اسيرة لكل هذا البهاء.

«منظرها يستحوذ على النفس، اليس كذلك؟».

فأجابته بهزة صامتة من رأسها وبابتسامة خفيفة. فأخذ ذراعها وقادها الى الأمام. وقد علا التفكير وجهه الأسمر.

«لم ار لها مثيلاً من قبل».

دخلا البناء من البوابة الرئيسية التي ذكر لها هيو بأن تاريخ بنائها يرجع الى عام الف وخمسمئة ميلادية. وتمهلت قرب منحوت من الحجر، زين بنقوش محفورة تشرح قصصاً دينية قديمة.

وقادها من مكان الى اخر. وعندما وصلا الى الجدار الشرقي النورماندي لفت نظرها الى لوحة زيتية شهيرة. وعلى الرغم من ان الاضاءة كانت خافتة في الجناح الشمالي من الكاتدرائية الا انها لم تستطع ان تخفي جمال اللوحة. وانتقلت افكارها ببطء الى كولن. وشعرت انه من المؤسف الا يكون هنا هذا العصر. فهذه اللوحة الرائعة، والكاتدرائية، وكل ما يحتويه المكان لا بد انها كانت ستستثير حماسته الفنية.

لاحظ هيو فوراً التبدل الذي اعتراها، فسأل:

«ماذا يزعجك يا سارة؟».

واستقرت نظراته عليها بشيء من السخرية. وأحست سارة بأنه يغزو احاسيسها. فسارعت الى دفعه عنها.

«لا شيء...».

قالت متجنبة بمهارة ان ترد على سؤاله. وازاحت شعرها عن جبينها، ثم تركت اللوحة وسارت عبر الباب الشمالي الى الرواق الخارجي. ثم توقفت امام تمثال جيل وقد داهمها شعور بالحماقة. ولاحظت ان التمثال صنع عام

الف وتسعمئة وتسعة وخمسين. ثم شعرت بهيو يقترب منها.

«من المؤسف انك لا تجدين القدرة على الافضاء بما يزعجك يا سارة. هل ابدو لك وحشاً مرعباً؟».

«طبعاً لا. وحثت نفسها على بذل مزيد من الجهد. انك لطيف جداً هذا العصر».

«اسلوب ممتاز في الكلام. ولكنني اعتقد، لا اعرف كيف بأن هنالك شيئاً يسبب لك الازعاج، يا صغيرتي الجبانة».

وقفت سارة تحدق فيه، والنور والظل يتلاعبان فوقها، وجسمها المشدود بحذر يتأرجح على حافة الهروب. بعد لحظة صمت قال باكفهرار:

«وبما انه يبدو انك فقدت لسانك، وانني قد افرغت جعبتي من المعلومات، فإنه من الخير ان نذهب للبحث عن جيل فهي على الأقل تملك ذخيرة لا تغيض من الكلمات».

ظلت سارة على صمتها. وراحت تنتظر ان يتلاشى اضطرابها. وغادرت الكاتدرائية على مضض مع هيو. وسارا باتجاه فندق القرية.

«في كل حال، اعتقد انك رأيت بما فيه الكفاية اليوم. واذا ما حاولت ان تري المزيد فقد تصابين بسوء هضم ذهني. ثم انه بوسعنا ان نعود الى هذا المكان اذا ما رغبنا».

بعد ان فرغوا من تناول الشاي، اقترح هيو ان يذهبوا في جولة صغيرة بمحاذاة الشاطىء الى الخليج، حتى يحين موعد عودة جون فيلي.

ولكن جيل تذرعت بالتعب. وابدت الرغبة في ان تظل في الفندق من اجل ان تتحدث الى بعض الطلاب الذين كانوا يقيمون في الفندق. فوافق هيو على طلبها متذكراً عمليتها.

سارت سارة برفقة هيو بمفردها. ورغبت ان ترى كل ما يمكن ان تراه من ايونا في الساعة المتبقية لهما لأنها ظنت انه من الحماقة ان تضيع مثل هذه الفرصة، حتى ولو كان هذا يعني ان تتيح لهيو ان يشاكسها كلما قالت او فعلت شيئاً غبياً. يجب ان تتعلم كي تتجنبه.

كان الطريق باتجاه الجنوب يسير بمحاذاة شاطىء رملي. ولكنه انتهى قبل ان يصلا الى الخليج، فسارا على الرمال عدة امتار لأن المد كان قد انحسر كاشفاً جزءاً من الشاطىء.

كان الخليج صغيراً وجميلاً جداً، اذ انحدرت الصخور المطلة عليه في تدرجات عريضة تغطيها شجيرات اللبلاب. وكانت قمم الصخور مكسوة باعشاب الخلنج التي ترتدي حلة من الزهور الوردية في الفصل المقبل. وبدت البقعة مهجورة مما اثار دهشة سارة، فقد ظنت انهما سيلتقيان ببعض السياح هنا.

وانعطف الخليج متغلغلاً في البر، بينما راحت الرمال البيضاء تتألق قرب الصخور التي كستها الطحالب الفضية. وفاضت البرك الصغيرة التي خلفتها الأمواج بمختلف انواع الأعشاب البحرية الرقيقة المتعددة الألوان. وامتدت امامها، مطلة بعظمة، جبال «مل» بقممها الغارقة في رماد الغيوم. وكان الهواء نقياً عليلاً. وبدا كأن الألوان في ايونا تتصف بنوع من الصفاء الغريب الذي يأسر الحواس.

ركعت سارة على الرمال لتخلع حذاءها. وقد نسيت وجود هيو للحظة. ثم ثنت نهايتي بنطلونها. وفجأة شدها هيو بسرعة وصمت الى ظل صخرة مجاورة، فكادت ان تفقد توازنها، ومدت يدها بحركة مرتعشة لكي تمنع نفسها من الوقوع.

«اذا ما انتظرت هنا قليلاً. قبل ان تتسرعي في الغوص في البرك، فإننا قد نرى بعض الطيور قانصة المحار. لقد وعدت ان آخذك لمراقبة الطيور، اليس كذلك؟».

على الرغم من حرارة الجو ويوم حافل بالمغامرات شعرت سارة بموجة من الاثارة لم تقمعها رنة المزاح في صوت هيو، والوميض الساخر في عينيه. اذا كان يظن ان قضاء نصف ساعة على شاطيء رملي كفيل بأن يخلصه من الوفاء بوعده لها بمرافقتها لمراقبة الطيور. حسناً! ومن هي لتناقشه في قراره؟

عاد ذهن سارة الى كولن براون لأنها شعرت بأن الجزيرة بمناظرها وطيورها لا بد ان تشكل موضوعاً مفيداً له.

«انظري!».

ولكزها هيو بلطف مشيراً الى بعض الطيور قانصة المحار التي استقرت على الشاطيء قربها.

«لعل هذه الطيور تبحث عن سرطان البحر. اذا ما جلست دون حركة، فلعلنا نرى احدها يمسك بالسرطان.

حاولت سارة ان تفعل ما اقترحه عليها. ولكن ضيق المكان ازعجها. اذ وجدا نفسيهما في شق عميق بين الصخور. وكادت اكتافهما تتلاصق. وشعرت بالرمال تتسرب من خلال اصابع قدميها، مما اثار في نفسها شعوراً حسياً غريباً. فتسارعت ضربات قلبها مما جعلها تخشى ان يلاحظ هيو هذا الوجيب. فادارت رأسها نحو الشاطيء، وافلتت منها تنهيدة خافتة.

كانت الطيور التي رأتها كبيرة، بيضاء وسوداء، ولها مناقير برتقالية تتصاعد منها بين الحين والآخر صيحات حادة وغريبة، سرعان ما تنقلب الى نغمات مزمارية مجنونة كلما اهتاجت الطيور او اضطربت. وراحت هذه الطيور الصاخبة التي بدت اليفة نوعاً ما تحفر حفراً في البرك الصغيرة، التي خلفتها مياه البحر، بمناقيرها الطويلة بين الطحالب البحرية. وصادف الحظ بعضها، وامسك أحدها بسرطان كبير ولكن سرعان ما فقد فريسته عندما انقض عليه طائر نورس كبير، واختطفها منه.

«لكن الغنيمة من نصيب الرجل الأفضل».

«أليست هذه هي الحالة دائماً؟».

ردت سارة بتمهل وهي تبحث عن صندلها، وقد اخذ اهتمامها بالطيور، وحتى بالبحر ينحسر اذ احست بأن الوقت قد حان للعودة.

«يسعدني ان اعتقد ذلك».

واتكأ على الصخور خلفه بارتخاء، ساداً طريق الهرب امامها. ولم يبد عليه انه كان على عجل.

«ولكن هذا لا يحدث دائماً. خصوصاً فيما يتعلق بالنساء، اللواتي اجدهن مخلوقات مشاكسة عنيدة. وهن احياناً يقعن في هوى الرجل حباً في نقائصه وضعفه. مما يجعلهن يتعامين عن حاجته الى خصال اكثر صرامة».

نظرت سارة اليه بسرعة. هل يشير الى انسان معين بالذات؟ وقالت باحتراس:

«قد تكون على حق».

وانحنت الى الأمام عابثة بالرمال بين اصابعها النحيلة. واخفى شعرها المتهدل على جبينها تعابيرها. لن تناقش. لأنها لا تريد ان ينتهي هذا اليوم المثالي بنغمة ناشزة. وثبتت صحة حدس سارة عندما سأل هيو فجأة:

«هل تظنين بأن جيل ما زالت تصبو الى صديقها الفنان؟».

فقالت بسرعة:
«من المحتمل انها ما تزال. بل اعتقد انه اكثر من احتمال».
«الم تسر لك بشيء؟».
«لماذا لا تسألها بنفسك، يا هيو؟».
ارتفع حاجباه الداكنان اذ قال:
«انك تتعمدين المراوغة والتملص».
فلدغتها كلماته. وشعرت بأنه ليس هنالك امل في ان تستطيع اخفاء الحقيقة.
«سارة!».
رفعت رأسها منتفضة اذ خرقت مسمعها صرخته القصيرة. كان وجهه قريباً جداً منها، حتى انها استطاعت ان تتبين الخطوط الحادة حول فمه قبل ان تلتقي عيناها مباشرة بعينيه.
«هيو.. عندما ترجع والدة جيل الن تعيد النظر بالموضوع، وتوافق على مقابلة هذا الرجل؟ لا بد انه يملك بعض الصفات الحسنة».
استراحت نظراته على ذراعها العارية. وامتدت يده الى يدها، وفك اصابعها المتقلصة برقة، واحداً فواحداً. فأفزعتها لمسته ووخزتها كالابر،
قال بعذوبة وعيناه تستقران ثانية على وجهها المصفر:
«هل تعتقدين بأنني يجب ان افعل يا سارة؟».
«لا اظن بأنك ستندم على مثل هذه الخطوة».
وحمل صوتها رنة اسى خفيفة.
«هذا تفاؤل عظيم! قال بسخرية رقيقة. لكن من اجلك يا سارة قد أقدم على هذه الخطوة».
اضاء وجهها فجأة عاكساً الدفء الداخلي الذي غمر جسمها. ولكنها هزت رأسها قائلة:
«ان ما تفعله، يا هيو، يجب ان يكون من اجل جيل لا من اجلي، فالمشكلة هي مشكلتها لا مشكلتي».
«ولكنك قد تجابهين مشكلة خاصة بك بأسرع مما تتوقعين».
تناهت اليها كلماته متكاسلة غامضة. ومد رجليه بخفة بجانبها. وراح يلف خصلة من شعرها الطويل حول اصبعه. وقفز قلبها بتعاسة عندما

حطت نظراته عليها. لن تستطيع الافلات منه الا اذا اطلق سراحها. وشعرت انه من الغباء ان تتوسل اليه ليفعل ذلك. ماذا عنى بكلماته الأخيرة؟ وفاضت فيها التساؤلات. لقد عانت من قسوته من قبل. كيف سيتصرف لو عرف بأن كولن يعيش هنا، وانها قد علمت بالأمر؟ لا، لا يمكنها ان تفكر بما سيحدث. وقالت سارة محاولة ان تتخلص من تعذيب اعصابها المرهقة:
«ان جيل لا تفهم لماذا ذهبت والدتها الى اميركا من دونها»
«من الأفضل الا تفهم».
«في كلماتك نذير».
وندمت سارة على جملتها المتسرعة. سيظن بأنها تحاول ان تسبر غوره.
ابتسم هيو فجأة. وشد خصلة من شعرها حول اصبعه بحركة قاسية متعمدة. وراقبها تجفل. فقال بنعومة:
«الحقيقة...؟ اظن ان جيل قد طلبت منك ان تجسي نبضي، ايتها الاعجوبة الصغيرة. حسناً! قولي لها بأنني رفضت ان اتكلم، ودعينا نرى ماذا تفهم من ذلك».
اشتعل جلد سارة انفعالاً وغضباً يائساً:
«ولم الظهور بمظهر المنافق؟».
«انا لست منافقاً فيما يتعلق بك. في ظروف غير هذه كان من المحتمل ان استجيب لاغراء جمالك. فما انا الا بشر».
«لا تبدو واثقاً مما تقول».
«طوال حياتي... كان من عادتي ان اتصرف بسرعة. ولكن الرجل يجب ان يتمهل احياناً. ان مظهرك البريء يجبر المرء على كبح نفسه. ولكن هذا المظهر قد يكون خداعاً».
شهقت سارة وقد كاد الغضب يخنقها. ورفعت يدها التي لمست خده المشدود في محاولة للتخلص منه فوق الرمال. ولكنه كان اسرع مما توقعت. ووثب كالفهد وامسك بها قبل ان يقعا معاً على الشاطىء.
لم تجد سارة متسعاً من الوقت لالتقاط انفاسها. وتحركت يداها نحو صدره لكي تدفعه بعيداً عنها. ولم تستطع ان تتحرك تحت وطأة عناقه القوي. واحست بضربات قلبه وشعرت بدمائها تتأجج وهي تتمنى ان

تستمر هذه اللحظة الى الابد.

قد تكون هناك اشكال اخرى للتعذيب. لكن لا يوجد ما يوازي هذا الشكل عمقاً واكتساحاً. كان الهواء يمور بصيحات الطيور واغانيها، ولكن سارة لم تبال. وتباطأت الثواني ثم طالت. واخيراً رفع رأسه الداكن، وراح يحدق في وجهها المورد.

وفجأة جرت نفسها بعيداً عنه، وهي غير قادرة على التفكير بسبب الفوضى التي غمرت ذهنها.

وارتجف صوتها وهي تنظر اليه باهتياج قائلة:

«هل هذه هي طريقتك في التأديب؟».

راحت عيناه تحومان حول عينيها الزرقاوين بأهدابها الكثيفة واللتين ما تزالان طافحتين بالعواطف. ثم قال بسخرية متعمدة:

«لم اجد طريقة اكثر سحراً وجاذبية».

تراجعت سارة الى الخلف بحركة احتجاج لا ارادية.

«لم استسغ ما حدث».

ردت سارة بعنف، اذ راحت عيناه ترمقانها، وقد لاح فيهما وميض من التهديد. ثم قال بصوت ناعم:

«يلوح لي انك انت المنافقة الآن او... الا تعرفين؟».

«لقد نصحتني بأن ابحث عن علاقة رومانتيكية».

«لن تجدي مثل هذه التجربة مع ايان ماكنزي».

«ماذا تعني؟».

قال هيو هازئاً لاوياً شفتيه:

«هل تريدينني ان افسر؟».

«لا... انا...».

وارتعشت شفتا سارة حتى لم تعد قادرة ان تجبر نفسها على الكلام. وكرهت ان ترى القناع يزاح عن عواطفها فتتعرى امام عينيها. وحدقت في وجه هيو الأسمر الوسيم. وشعرت بتأثيره عليها. لأن جزءاً من ذاتها راح يستجيب بطريقة لا قدرة لها على التنبؤ بها، لشخصيته المسيطرة. اذا لم تقاومه فسيخضعها تماماً ويسحقها. وشعرت بالخوف يكتسحها. فقالت، ناثرة شعرها الى الوراء بأصابع مرتجفة:

«من الأفضل ان نذهب».

فرد قائلاً وعيناه تحدقان فيها بوحشية:

«الم يضمك احد من قبل. او هل ستحاولين ان تنكري ذلك؟».

وانتصب رأسه فجأة.

«اعتقد بأنني اكرهك».

ردت سارة وهي موقنة ان الحقيقة هي العكس، محاولة ان تتجاهل الألم الذي راح يمزق احشاءها.

«هذا ما تصرين على ادعائه. ولكني اظن بأنك تعرفين بان هذه ليست هي الحقيقة. وانا استطيع ان ابرهن لك على ذلك. في الحقيقة قد تستمتعين بالتجربة. انا اضمن لك هذا. ولكنك لست من النوع الذي اعتدت عليه».

«لا يبدو ان هذا قد شكل لك عائقاً حتى الآن. ولكنني بالتأكيد، لست واحدة من نسائك المتوحشات، ساكنات الغابات الاستوائية او الصحارى».

شعرت سارة بأن غضبها قد اعانها على استعادة بعض تمالكها لنفسها وساعد على ابطاء ضربات قلبها. ولاحظت وميض التسلية في عينيه وهما تستقران على العرق الذي راح ينتفض في اسفل عنقها.

«في غابة لن يردعني شيء عن التصرف تجاهك كما اريد. كم اتمنى ان اعثر عليك في غابة يا سارة! لانك لن تستطيعي الافلات مني هناك».

ادركت سارة بانه كان يهزأ منها، ضاحكاً. ولكن عينيه راحتا تومضان بنور رمادي كالفولاذ. واحست بضعفها المخجل وهي تحدق فيه كالمأخوذة. لقد اعترفت مسبقاً بأنها ليست نداً له من حيث البراعة اللفظية، وتضاءل بصيص الأمل في ان تستطيع مناورته والانتصار عليه بوسيلة اخرى، ثم تلاشى من نفسها تماماً. وعرفت انه من الحماقة ان تحاول المستحيل.

فهزت رأسها غير قادرة على الكلام. اما هيو فقد انتصب على قدميه قافزاً بخفة لا تتفق مع حجمه وطوله.

«من الأفضل ان نذهب من هنا».

قال هيو كمن صحا فجأة، وقد فارقته روح السخرية. ورفعها نحوه

بحركة بارعة في دقيقة واحدة، فآلمت اصابعه عظام رسغها.

«لن اكون مسؤولاً عما يحدث لو بقينا هنا وانت تبدين على هذه الصورة، بشعرك المحلول وقدميك العاريتين».

افلت هيو ذراعها وقد راحت تحدق فيه بعينين واسعتين تطلان من وجهها الشاحب، محاولة ان تسيطر على الشعور الغريب الذي غمر نفسها.

وانحنت بحركة آلية لتلتقط صندلها. واحست بغثيان خفيف بسبب الشعور بالمذلة الذي اجتاحها والذي لم تستطع له تفسيراً. وتمنت لو تستطيع الهرب منه. وقالت بصوت خال من التعبير:

«لا تقلق، فإن هذا لن يحدث ثانية».

عادوا الى لوخ غويل ليجدوا الفوضى قد استتبت في القلعة ذلك المساء. وكان السبب هو ان بيدي، بعد مناقشة طويلة أعلنت انها لزمت الفراش ما فيه الكفاية، وان الوقت قد حان لكي تنهض من فراشها وتتولى اعداد العشاء. فاعترى الفزع كاتي التي سارعت الى اخبار الدكتور ماكنزي بالهاتف. ووصل الطبيب في اللحظة التي وصلت فيها بيث. ولما كان ماكنزي في القلعة عند عودتهم من ايونا، فقد اضطر هيو الى دعوته لتناول العشاء معهم. وقبل ماكنزي الدعوة بسرعة غير عادية، خالية من الخجل.

«يظهر انه يريد ان يراقب مريضتنا المقعدة!».

تمتم هيو بجفاء هامساً في اذن سارة، وهم يجلسون على كراسيهم حول المائدة.

اجفلت سارة متجاهلة هجومه اذ ازاح لها الكرسي لكي تجلس. الا يفوته شيء؟ ان عيني ايان لن تفارقا وجهها منذ ان هبطت الدرج قبل خمس دقائق. وكان من المفروض ان يجلس بجانبها، ولكن هيو سبقه ببراعة وتعمد كما ظنت سارة.

«اعتقد ان بيدي تستطيع الآن مزاولة عملها؟».

سأل هيو مخاطباً الطبيب بصوت لاذع، وهو يأخذ مكانه بين جيل وبيث التي بدت جذابة جداً في ثوب اسود انيق.

«اشاركك الرأي. كان من الأفضل ان تبقى في السرير مدة اطول. ولكن المرء لا يستطيع ان يأتي بالمعجزات. لقد كانت الأعجوبة ان تنجح سارة في ابقائها في السرير مدة اسبوع. وعدتني بيدي الا تتعب نفسها».

«انها لا تطبق فكرة وجود اي شخص اخر في مطبخها». ردت بيث بحيوية. ولهذا حاول ان تداريها، يا عزيزي هيو».

«اذا ما فكر هيو بالزواج والاستقرار فقد تستطيع زوجته ان تبقي بيدي في مكانها». قالت جيل بجرأة كبيرة ووجهها يفيض بالاستياء. «لا استطيع انا شخصياً ان اتصرف تجاه نزوات بيدي ومزاجها».

«قد تثبت زوجتي المقبلة انها اسوأ منك في هذا المجال».

قال هيو مداعباً جيل بكياسة، ناظراً اليها بابتسام، وهو يملأ كأس ايان

«لا اصدق ذلك!». ضحكت جيل وهي تتناول ملعقة الحساء. «ماما تقول... بأنه على الرغم من كونك رجلا فإنك ستنتقي جيداً ساعة الاختيار».

احست سارة بشعور خفيف بالمرض، وراحت تلتقط الطعام من طبقها التقاطاً، غير راغبة برفع رأسها الذي اخذ يدور. كان شعورها بوجود هيو بجانبها طاغياً. وراح يلهيها عما حولها بمغناطيسيته الغريبة التي وجدت نفسها غير قادرة على مقاومتها.

وفسرت سارة شعور الأسى والكآبة التي اعترتها بتعبها والاثارة العاطفية التي عانت منها هذا العصر. وكان الاحساس بالبحر والسماء وفتنة تألق اشعة الشمس فوق المياه ما يزال معها، معمقاً في نفسها الشعور بحقيقة تلك اللحظة المؤلمة.

واعتراها احساس بالارتياح عندما اخذت بيث تتحدث الى جيل بوجه عابس عن ايونا ملقية عليها سيلاً من الاسئلة عن رحلتهم وكيف قضوها.

اتكأ ايان باحتراس الى الأمام، وقال لسارة وعيناه تعكسان عتاباً خفيفاً:

«لو عرفت بأنك راغبة بالذهاب الى ايونا لسرني ان اصطحبك. في الحقيقة، سأذهب الى ايونا في الاسبوع المقبل من اجل زيارة مريض. هل تحبين ان تأتي معي؟».

«آه، آسفة...».

حدقت سارة فيه مترددة. لم يستطع اي شيء منذ عودتهم ان ينتزع من ذهنها سحر ايونا. ولكنها، وهي تسترجع ما حدث، اجبرت نفسها على التركيز على الكاتدرائية بدلاً من شاطىء البحر. انها لن تطيق العودة الى ايونا، ليس الآن على الأقل. ولكن كيف تستطيع ان ترفض؟ فقد

اكتشفت، رغم قصر تعارفهما، بأن ايان قادر على ابداء الكثير من العناد والمشاكسة اذا ما رغب.

سارع هيو الى القول بحزم، بينما كانت لا تزال تفكر:

«ان سارة فتاة عاملة يا ايان. لا اظن انني استطيع الاستغناء عنها. ليس وضغط العمل كما هو عليه هنا. اليوم كان حالة استثنائية. لقد اردت ان ارى جون فيلي، وظننت بأن التغير قد يفيد جيل».

«وانا اريدها ان تخصص يوماً من اجلي. تدخلت جيل قائلة قبل ان يجد ايان فرصة للاعتراض. ارغب في ان نذهب معاً الى اوبان لانني اريد ان اشتري ثوباً للحفلة. فليس عندي فستان واحد مناسب».

تململ هيو بغيظ بجانبها، وقال:

«لماذا، بحق السماء، لم تجلبي فستاناً معك يا جيل؟ كان يجب ان تعرفي بأنك قد تحتاجين اليه».

ابتسمت جيل ابتسامة عذبة لاخيها، ورمقته بعينين واسعتين بريئتين.

«كان السبب هو عمليتي، يا عزيزي هيو، لقد منعني المرض من مجرد التفكير بالحفلات والرقص. ولهذا ارجو الا تبخل علي بسارة. انا واثقة انك تستطيع الاستغناء عنها لمدة عدة ساعات. الا توافق يا ايان؟».

وادارت وجهها المتوسل الى الطبيب.

هز ايان رأسه بالايجاب، متحالفاً معها، وقد عاد اليه مزاجه اللطيف.

«في كل حال، سأرافق سارة الى الحفلة الراقصة. لا تستطيع ان تجبرها على العمل خلال الحفلة، يا صديقي العجوز».

قهقه الجميع، اما سارة فقد وجدت من الصعوبه حتى ان تبتسم. وتحولت عيناها رغماً عنها الى هيو. ولاحظت بخوف فجائي عصبي ان فمه كان مضموماً بشدة. وومضت عيناه وهو ينظر الى الرجل الجالس مقابله. ولكنه قال باهمال دون ان تبدو عليه امارات الغضب:

«اقول في صالحك انك رجل لا يضيع الوقت. الا اذا... أضاف بلهجة معسولة. كنت جسوراً بعض الشيء».

تحركت سارة على كرسيها بقلق، واصابعها الملفوفة حول كأسها مشدودة من التوتر. وادار هيو رأسه فقابلت عيناها نظرته. وأدركت انه عليها ان تقول شيئاً، ولكنها لم تدر كيف تجيب، فهزت كتفيها بحركة عاجزة.

«لقد اتخذت قراري صباح البارحة فقط. اعترفت بتعاسة وهي تنظر باتجاه بيث. لقد سألتني الآنسة اسكويث ان احضر الحفلة قبل يومين، ولم اعتقد بانك ستمانع».

«يبدو ان هيو يتخيل باني ساهرب معك».

قال ايان ضاحكاً ووجه اللطيف يشرق بالابتسام. وبدا من الواضح انه لم يكن على علم بالتيارات الخفية وراء الكلمات. وتمهلت نظراته بحماس على وجه سارة المورد.

«لم تتح لي الفرصة لحضور الحفلة منذ سنوات، بسبب طبيعة عملي. ولكن لن يحول بيني وبين حضورها هذه المرة الا كارثة او ما يشابهها».

بعد ذلك اخذ الحديث مجرى اكثر طبيعية. ولكن ايان، قبل ان يغادر القلعة، وبينما كانت سارة تستطلع رأيه الأخير بشأن بيدي، توسل اليها ثانية بالا تنسى بانها قد وعدت بالذهاب معه الى الحفلة.

«ليس لان الحفلة مهمة يا سارة. انت تدركين هذا بالطبع. ولاحت في عينيه اللطيفتين فجأة نظرة حادة. ولكنني لم اقابل فتاة مثلك من قبل. ويخيل الي بانني قد بدأت اقع في حبك».

«اه، من فضلك، يا ايان... وحدقت فيه بجفلة. لا يمكن ان تكون جاداً اذ انك لم تتعرف علي الا منذ ايام فقط».

واعترت سارة حالة من الاضطراب التي أفلحت، بالاضافة الى تعبها، في تمزيق اعصابها. وبدا ايان جاداً تماماً وكأنه يصدق ما يقول. لو انها لم تكن تعاني من الاحساس بوجود رجل آخر لكانت الأمور، دون شك، مختلفة. واجتاحتها موجة من اليأس مشتتة قدرتها على التفكير المنطقي. ولم يسعها الا ان تحدق في وجه ايان دون ان تنبس ببنت شفة. ولكن قبل ان تستطيع قول اي شيء اخر، التقط ايان قبعته القديمة، مبتسماً ابتسامة حزينة، وكأنه قد خمن بعض ما كان يجول في نفسها.

«لا تهتمي يا سارة. نامي على الفكرة بهدوء هذه الليلة. ولا تدعيها تزعجك».

ثم ودعها بلمسة رقيقة من يده، وتركها واقفة شاخصة في الفضاء وراءه.

لقد كان يوماً حافلاً بلا شك!

٨ - عواطف متفجرة

قررت جيل الا تذهب الى اوبان لشراء فستان جديد. واعترفت لسارة بأن الفكرة ولّدها في نفسها دافع عنيد لقضاء يوم بأكمله مع كولن الذي كان من المنتظر ان يرافقها. ولكنها بعد تفكير عميق، قررت بأنه ليس هنالك ما يدعو الى الاقدام على هذه الخطوة الخطيرة.

«قد يكتشف هيو الحقيقة بسهولة. او قد يصر على القدوم بنفسه خوفاً من ان اتعرض لنكسة. وأنت تعرفين هيو. احياناً يخيل الي ان له عينين في مؤخرة رأسه».

استجابت سارة لملاحظة جيل بابتسامة متقلصة. ولم تكن تشعر مطلقاً بالرغبة في الذهاب لشراء ثوب برفقة جيل. كما انه لم تكن لديها رغبة حقيقية بترك لوخ غويل حتى ولو ليوم واحد. ولهذا فقد داخلها ارتياح كبير عندما غيرت جيل رأيها.

تحركت جيل متململة عندما لم ترد عليها سارة. وكانت لا تحب الصمت من اي نوع. وراحت عيناها تتجولان بتفكير فوق وجه سارة.

«سمعت هيو يقول لبيث الليلة الماضية بأنه قد يذهب الى لندن ثانية في الاسبوع القادم. قد اذهب معه لقضاء يومين او ثلاثة اذا قبل باصطحابي. ان كولن مشغول جداً، وعليه ان ينجز بعض المهام المتأخرة. ولا شك انه سيغتاظ مني لو اعقته عن العمل. ولكن اذا ما ذهبت مع هيو فإن هذا سيعطيه الفرصة لينسى وجودي حتى اعود».

ادارت سارة رأسها ببطء وحدقت فيها وقد انتزعتها كلماتها من خمولها.

«ان السيد فريزر لم يذكر لي انه سيذهب الى لندن بينما كنا منهمكين في

العمل هذا الصباح».

«لعله لم يفكر بالأمر. فهو مشغول جداً طوال الوقت بالجري وراء بيث. لا اعرف لماذا اسمح لنفسي بتحمل كل هذا القلق من اجل اخفاء كولن عن الانظار. ان هيو لن يلاحظ ولو جلسنا انا وكولن فوق قمة جبل بن مور».

«لقد ذكرت قبل لحظة بأنه لا يفوته شيء، حتى ولا كلمة».

«هل يجب ان تأخذي كلامي دائماً على محمل الجد؟ انما انا احاول ان المح الى ان الحب احياناً يعمي الناس. يبدو لي انه من المؤكد تقريباً انه سيعلن خطوبته في الحفلة».

«تعنين خطوبته الى بيث؟».

وحاولت سارة ان تبتسم، ولكن شفتيها لم تفلحا الا في الانفراج بألم.

«ومن غيرها؟ لقد راقبتها جيداً. وانا واثقة من ان هنالك علامات».

«علامات؟».

«ان المرء لا يحتاج الى رؤية حادة او قدرة على قراءة المستقبل لكي يرى ما يحدث. لقد وضعت اثنين واثنين معاً: ان هيو يفكر بالبقاء في لوخ غويل كما سبق أن ذكرت لك. لقد اكتشفت ان لديه خطة لابتداء مشروع بتربية الخيول وتوليدها. فهو كان دائماً مغرماً بالخيل. اعتقد انه يفكر ايضاً ببناء بعض الأكواخ والبيوت في ممتلكات القلعة لأن عدداً من الأكواخ القديمة قد بدأ بتداعى الى حد لا يمكن معه ترميمها. ولهذا، اذا ما اخذنا بالاعتبار كل شيء، فلا بد ان تكون بيث في منتهى السرور الآن».

«منتهى السرور؟ ماذا تعنين بقولك هذا؟ قد تكونين مخطئة. قد يكون هيو قرر ان يترك لوخ غويل نهائياً. ويبيع املاكه هنا بعد ان ينسق امورها. ثم ان بيث قد لا ترغب في العيش هنا مطلقاً».

«اعتقد انك انت المخطئة. في كل حال، ان الوقت سيحكم بيننا. وبالمناسبة... استطردت جيل قائلة وهي تنقل نظراتها الحادة الساخرة من البركة الى وجه سارة فلماذا تكثرين من استعمال «السيد فريزر» هذا العصر. البارحة بعد عودتنا من ايونا كنت تستعملين «هيو» فقط. في الحقيقة لو لم تكن بيث في المنظر، ولو كنت فتاة اخرى غير سكرتيرته، لظننت بأن هيو قد افتتن بك يا سارة العزيزة».

«لا تكوني غليظة! احياناً، انا انادي السيد فريزر باسمه، هيو».

وقفزت سارة على قدميها مرتبكة وقد اشتعل خدها احمراراً. ان جيل لا تحتمل! وتحركت متململة وقد اعتراها دافع فجائي غامر بأن تذهب الى مكان ما. كان الجلوس في الحديقة ممتعاً، لكنها احست بأنها لا تستطيع البقاء في مكانها مدة اطول، نهباً للشكوك إثر ما قالته لها جيل.

«هل لديك مانع من السماح لي باستعارة سيارتك لمدة ساعة او ساعتين؟ احس بالرغبة في ان اذهب للمشي، ربما باتجاه جبل بن مور. لقد امضيت طوال العصر في الكوخ بصحبة غوين. ولهذا فأنا ارغب باستنشاق بعض الهواء النقي. ارجوك ان تطلبي من بيدي الا تحتفظ لي باي طعام. سأتناول عشاء خفيفاً عندما اعود».

«حسناً يا عزيزتي! ولكنني لا اعرف من سيزعجك لو بقيت هنا. فأنا سآخذ حماماً طويلاً ساخناً، ثم اصطحب كاتي الى سالن لكي تزور خالتها. ولهذا لن احتاج اليك هذا المساء».

ابتسمت سارة رغماً عنها، بسبب اللهجة الماكرة التي القت بها جيل كلماتها الأخيرة. واحست بأنها تعرف تماماً ماذا ستفعل جيل. ستأتي كاتي الى كوخ الآنسة بلاك ثم تذهب لقضاء الأمسية مع كولن. ولكن سارة لم تعلق واكتفت بأن تقول:

«سأراك غداً، اذن».

ما كان بامكان سارة ان تجد متعة في هذه اللقاءات السرية، والاثارة الناتجة عنها. لأن ذلك كان يعني الاشتراك في خدع هيو. وارتعشت سارة فجأة وهي تسير بعيداً. فإن الشعور بأنها على علم بالخداع الذي تمارسه جيل كان يلازمها دائماً. وكانت تدرك بأن اعصابها المشدودة الى حد لا لا يطاق على وشك التمزق وقد استطاعت ان تتحمل ولكن هذة الايام الاخيرة كانت اصعب من ان تطاق فالان على الرغم من هيو كان يبدو وكانة غير شاعر بوجودها .فأن احساسها هي بوجودة في تفاهم وكذلك احساسها بالثورة الداخلية التي يستطيع ان يسببها لها .ان معظم ما حدث بينهما كان نتيجة لاخطائها وهذا فان عليها الا تلوم نفسها اذا اراح الحديث عن احتمال اعلان خطابتة يسبب لها الالم فالرجال عادة لا يعتبرون ضمة او ضمتين امرا جدين.ولكن سارة حنت الى الشعور بذراعية تطوقانها ثانية ولو مدفوعا بنزعة عدائية.

«ولا تهتمي بالعودة بسرعة! هتفت جيل وهي تهبط السلالم حاملة سترتها على ذراعها. استطيع ان استعمل اللاندروفر اذا ما دعت الحاجة».

لماذا لم يخطر لها هي شخصياً ان تستعمل اللاندروفر؟ فكرت وهي تسوق السيارة في الطريق المحاذي للشاطىء. وكان المنظر جميلاً جداً. وكذلك الجو.

ابطأت سارة من سرعة السيارة. واخذت تفتش عن مكان تقف فيه. وكانت الغيوم المتجمعة من ناحية الغرب تغير الوان الخليج باستمرار من الرمادي الفاتح، الى باقة من الألوان الزرقاء تفوق بهاء والقاً الوان البحر الأبيض المتوسط الذي شاهدته خلال عطلاتها في السنين الأخيرة.

اوقفت سارة السيارة، وتمهلت لحظة قبل ان تخرج منها.

خالج احاسيس سارة بعض الانتعاش، مما جعل كآبتها تنحسر وهي في طريقها باتجاه البرية الوعرة. ووجدت جدولاً فراحت تراقبه يسيل فوق الاحجار في مهده الصخري. ثم انحنت وغرفت بعض المياه الباردة في يدها. ورفعتها الى شفتيها الجافتين. ثم خلعت السترة، وجثت على نتوء صخري فوق شاطىء الجدول، واخذت في يدها مجموعة من الحصى. وكتبت اسمها بعناية على الأرض، مجمعة الاحجار الصغيرة وقد علا وجهها العبوس لشدة استغراقها.

عندما كانت طفلة كانت امها تلعب معها احياناً على طرف الجدول الصغير قرب بيتهم في ويلز. وكانتا تتسابقان احياناً في كتابة اسميهما بالحصى لتريا من تنتهي اولاً، وسهل الأمر ان عدد حروف اسم والدتها كانت تماثل عدد حروف اسمها.

واحست، وهي تستعرض ذكرياتها الآن، بأن معرفة سر فوزها الدائم بهذه اللعبة ليس من العسير تخمينه الآن. ولكن أن تربح في اية لعبة، مهما كانت بسيطة، كان انتصاراً كبيراً للطفلة سارة حينذاك، التي لم تتجاوز ربيعها الخامس.

افلتت تنهيدة من شفتي سارة وهي تمضي في طريقها، متتبعة مياه الجدول المتلألئة، حتى جذب انتباهها منظر غزال صغير يقف على حافة الصخور. فاقتربت منه باحتراس، ولكن الغزال راقبها تتقدمها بعصبية وحذر، ثم رفع رأسه وقفز هارباً.

شردت سارة دون هدى، نصف حالمة تحت اشعة الشمس الدافئة. واستسلمت للصمت والهواء العابق برائحة الصنوبر حتى كادت تصل الى حالة من السكينة المخدرة. وحادت عن الجدول، ثم ذهبت لتجلس على حافة افريز صخري غارق في الظلال. وكانت قد افلحت في صعود جزء من جبل بن مور المعروف بسهولة التسلق، ولكن ليس من دون خريطة وبوصلة، فهما ضروريتان. ولم تكن سارة تعتزم ان تتسلق الجبل. وما ارادت الا ان تتجول لكي تجهد نفسها جسدياً من اجل التخلص من افكارها. وعندما جلست مسندة ظهرها الى الصخرة الدافئة، احست بانها قد افلحت في تحقيق مرامها.

حلّق صقر في الفضاء وراقبته سارة حتى اطبق جفناها الثقيلان. ولم يكن هناك سوى الصقر والشمس والريح الهامسة. فغرقت في نوم عميق.

لم تتذكر سارة بعد ذلك اللحظة التي استسلمت فيها للنوم. ولا ما الذي ايقظها. الا اذا كان جسدها يحتوي على نوع من جهاز للانذار ظل متيقظاً اثناء نومها. ولما فتحت عينيها لم تعرف اين هي. واعتراها الفزع وكأنها وقعت فجأة في قلب كابوس معلق. ولم تستطع ان تعثر على اي اثر يدلها على مكان وجودها اذ احاط بها حجاب من الضباب الرمادي حاجباً كل شيء. وما كان الأمر ليختلف لو انها وجدت نفسها فجأة في عالم اخر، او في منتصف الطريق بين كوكبين. ابداً لم تر من قبل مثل هذا البياض الذي يشبه القطن، او هذا الهواء السميك الذي لاح لعينيها الفزعتين جامداً، لا يمكن النفاذ خلاله.

بعد لحظات خيل لها انها كانت دهراً، تحركت ببطء وحذر، خائفة ان تهشم هذا الصمت الرهيب... هذا الصمت الذي لم تعرف له مثيلاً من قبل على الرغم من انها كانت قد قرأت قصيدة عنه في الماضي تتحدث عن جزر الهيبريديز وصمت البحار. وتساءلت سارة، بابتسامة ملتوية، فيما اذا كان الشاعر قد عانى مثل تجربتها هذه.

افلحت روح الفكاهة التي خالجتها للحظة في تشتيت بعض مخاوفها: وراحت تمشي متعثرة. واحست بتقلص في احدى قدميها وهي تنظر الى ساعتها مما جعلها تجفل من الألم. كانت الساعة الثامنة تقريباً. لقد نامت ساعة! ولما خف الألم في قدمها عاد اليها الفزع. وراح ذهنها يجيش

بالقصص المأساوية عن ناس ضاعوا في الجبال. اذ ان والدها كان عضواً في احدى فرق الانقاذ. وعرفت من تجاربه ان رجال الانقاذ لا يصلون احياناً في الوقت المناسب.

حاولت سارة بيأس ان تتذكر بعض الارشادات. يجب عليها ان تبقى متيقظة. هذا هو اهم شيء! ثم انه عليها الا تقدم على محاولة حمقاء قد تؤدي بها الى الوقوع في هوة سحيقة قبل ان تصل المعونة. ولهذا جلست متكورة على نفسها. ولكن جلوسها ساكنة جعل ذهنها يعود الى سلسلة من الافكار المتشائمة. ان المساعدة اذا ما وصلت ستصل متجسدة في شخص هيو فريزر دون شك! فهو الشخص الوحيد الذي يحتمل ان يعرف بوجودها هنا. ستذكر له جيل بالطبع اين ذهبت. وعندما تتأخر في العودة... وشعرت سارة بأن تخيل ردود فعله المحتملة قد اخذ يخرق ذهنها في هوات صقيعية لا قرار لها. لا شك انها قد تصرفت بحماقة. ولكنه لن يفسر الأمر كذلك. فقد علمتها التجربة بأن غضبه لا يمكن التنبؤ بأبعاده. واقشعر جسمها اذ خمنت ما يمكن ان يقوله اذا ما وجدها على هذه الحالة. وراحت تبتهل متمنية ان ينقشع الضباب لكي تستطيع العثور على الطريق والعودة قبل ان يتفاقم الوضع.

بعد نصف ساعة تقريباً سمعت سارة صوتا ينادي، ولكنها وهي راكعة قرب الصخور خالتها اياماً.

وهكذا بدت عندما عثر عليها هيو: جاثية متكورة تحت الصخور العالية، ترتعش مرتجفة. ولم تسمعه حتى وقف امامها يكاد يدوسها بقدميه.

«لا شك انك ولدت تحت كوكب محظوظ».

قال برصانة، وهي تنظر الى الأعلى لتحدق في عينيه ووجهها شاحب شاخص، وعيناها تفيضان بخليط عجيب من الخوف والامتنان.

التصقت السترة الرطبة بجسدها النحيل. وراح قلبها يمور بسيل من العواطف اذ استراحت عيناه على وجهها الأعزل.

«كيف وجدتني؟ لم اصرخ».

«اما انا فقد صرخت. ولو انك كنت تصغين واجبت، لوجدتك قبل الآن، مما كان سيجعل مهمتي اسهل».

هزت سارة رأسها هزة بكماء. واخيراً تمتمت بصوت مرتعش:
«آسفة، لم اسمعك».
كانت يداها قد اطبقتا بشدة وعنف حتى بدا معصماها بلون البياض.
واحست من انحناءة رأسه وتجهمه انه كان في حالة نفسية تنذر بالخطر. كان ما يزال واقفاً، مهيمناً فوقها، دون ان يفصح عن شيء. ولكنه ما لبث ان قال ووجهه خال من التعبير:
«لقد وجدت اسمك قرب الجدول، وكذلك اسم امك. فقد دعتها صديقتك، عندما تحدثت عنها في لندن، باسمها: ايما. وهذا اتاح لي ان اتبع الأثر الصحيح. ولكنني كنت على وشك الرجوع عندما عثرت عليك فجأة. لقد كان من الجنون ان اتي بمفردي كل هذه المسافة».
«كل هذه المسافة؟».
«نعم لقد تجولت اميالاً».
لم يبد لها هذا ممكناً. ولكنها لم تجرؤ على الاعتراض. وركع على الأرض بجانبها وامال رأسه باتجاهها.
«الم تدركي خطر الشرود وحيدة في مكان كهذا دون اية احتياطات. حتى ولا معطف حقيقي؟ لو لم اجدك لتجمدت من البرد قبل بزوغ الصباح بهذه الثياب الهفهافة».
وتنقلت عيناه فوق جسمها وثيابها الرقيقة بجرأة. فارتجفت كريشة في مهب الريح. وتناهى اليها صوته يتأرجح بين الغضب والاهتمام.
«لم يكن في الأمر ما يستدعي هذا. اليس كذلك؟».
وكاد هيو يسمع النفس الحاد الذي سحبته في الفضاء المشحون حوله عندما قالت:
«هل تظن بأنني فعلت هذا عن عمد؟».
«ربما، بعض الناس يجدون متعة في عمليات انقاذهم».
«لا استطيع ان اثبت لك شيئاً. ليس بوسعي ان اقدم لك اي برهان الا كلمتي».
طاف نوع من الاستهزاء بفمه الحازم وقال معلقاً:
«ان اي واحد منا قد يتعرض لسوء الظن».
«لم يخطر لي انني سأفقد طريقي».

«ماذا كنت تتوقعين؟».
اخذت سارة تصارع للوقوف على قدميها المرتعشتين محاولة الابتعاد عنه. ولكن يده هبطت ضاغطة على كتفها بقوة كانت كافية لتلزمها مكانها.
«من الأفضل ان تبقي هنا في مكانك. لا اعرف ماذا تريدين، ولكني لا انوي المخاطرة بعنقي مرتين. فقد نسلك درباً خاطئاً. وكما قلت لك من قبل، انني مجنون بلا شك للجرأة على القدوم الى هنا بمفردي».
سرت في جلد سارة مئات الرعشات وهي تحاول ان تتخلص من قبضته القاسية. والمتها التكشيرة الهازئة التي افتر عنها فمه الى حد كبير. فجابهته بنظرة طويلة متوسلة اذ ركع بجانبها على الأرض مقرقعاً بصوت جزمته على الأرض الصخرية الوعرة.
وبدا وكأنه قد لان قليلاً. وراحت عيناه تتفحصان مكانها بنظرات سريعة مقيمة.
«سننتظر هنا بعض الوقت. قد ينقشع الضباب. ان الرياح قد بدأت تهب، والتنبؤات الجوية حسنة. واذا ما حالفنا الحظ فإن الضباب سينحسر خلال فترة نصف ساعة. اننا على مسافة بعيدة عن السفح، ولكننا لسنا قريبين كثيراً من القمة».
حدقت سارة في هيو باضطراب كبير وقد ارتسمت الحيرة على وجهها.
«الن يقلقوا في لوخ غويل؟».
استند هيو بظهره الى الصخرة، فارداً كتفيه، محاولاً ان يجد بقعة مريحة. وقال وهو يطلق سراحها بحركة لا مبالية:
«لقد طلبت منهم ان يعطوني مهلة حتى العاشرة. اذا ما حالفنا الحظ قد نصل قبل هذا الموعد فالساعة الآن لم تتجاوز الثامنة الا قليلاً. واذا لم نستطع العودة فاننا سنعتبر محظوظين ايضاً لو لقينا بعض المساعدة».
«انني لاتساءل لماذا لا تلقي بي في قعر هاوية ما».
قالت متسرعة، متهورة.
ابتسم هيو ابتسامته الهازئة وعيناه تستقران على خديها المضرجين.
«اؤكد لك بانني لا اهجر مسؤولياتي بهذه السرعة. حتى ولو وجدت هوة سحيقة».
تجنبت سارة عينيه، والتفتت غير لاوية على شيء. وراحت تحدق في

العتمة المتكاثفة. وسألت فجأة:
«هل تناولت عشاءك؟».
«في المطبخ». اجاب ببطء. بسرعة. اخشى انني لست من فصيلة الأبطال الذين يهرعون الى تسلق اعالي الجبال ومعداتهم خالية حتى ولو من اجل فتاة جذابة مثلك».
«آسفة!».
«اشربي هذه. لا شك انك تشعرين بالبرد».
اخذت سارة الزجاجة منه غير راغبة، وامسكت بها بين يديها الباردتين.
«اشربيها!».
أطاعت سارة ورفعت الزجاجة الى شفتيها وشرقت قليلاً عندما احست بالدفء يسري في حنجرتها العارية. ثم اخرج هيو ترمساً من الجيب الآخر وسكب منه بعض القهوة الساخنة.
«هذه من بيدي. لقد استطعت ان التهم بعض الطعام بينما كانت تعدها».
كان للقهوة مفعول السحر وسرت الحرارة في جسم سارة، طاردة البرودة، رافعة من روحها المعنوية رغم ان الضباب كان ما يزال مهيمناً. وسيطرت على الرعشة في صوتها وقالت برقة:
«لا اريد ان تظن بأنني ناكرة للجميل».
«وفري علي هذا، بحق السماء».
حدقت سارة فيه، ووجهها ينبض بالحيرة. وادهشها التغيير السريع الذي اعترى مزاجه.
«آسفة».
تمتمت بشيء من الحدة.
وعندما لم تسمع منه جواباً عقدت ذراعيها حول جسمها وتكومت على نفسها. واحست بأن وجهها كان قذراً، اما قميصها فكان متجعماً. ولاحظت انها قد فقدت احد ازرارها. ولكنها لم تبال. وضايقها شعرها اذ انها كانت قد اضاعت شريطتها. مما جعله يتهدل حول كتفيها، ويتطاير في الهواء حول فمها. وحاولت ان تدفع به الى الوراء وقد نفد صبرها. ثم قالت:
«عندما اجد بعض الوقت سأقص شعري! ان شكلاً قصيراً سيبدو

لطيفاً. ويساعدني على ترتيبه بسهولة».
حطت عينا هيو فوق رأسها المحني. وقال بصوت فيه تهديد رقيق:
«اياك ان تفعلي ذلك. دعي شعرك وشأنه. انه يعجبني هكذا».
«لا يهم. لم تبق لي الا عدة ايام هنا».
وسرت في جسدها رعشة قوية مؤلمة، فاعتصرت جسمها بين ذراعيها لكي لا يلاحظ. اخطأ هيو فهم ما عنته. فتبدل مزاجه على الفور، وقال:
«اما زلت تشعرين بالبرد؟».
وامسك بذراعها جاراً اياها حتى لصقت به. وقال وقد بدا وجهه مشدوداً:
«قد نضطر للبقاء هنا مدة. والبرد كالشيطان المريد في هذه الأماكن».
شرقت سارة بأنفاسها، وحاولت ان تتخلص منه قائلة:
«دعني اذهب!».
فهزها هزة خفيفة وقال:
«انني لا امزح او ابحث عن سبب لكي احيطك بذراعي. لا اريدك ان تفقدي الوعي. هذا هو كل مرادي. واشتدت قبضة ذراعيه حولها. هل تشعرين بالدفء الآن؟».
«لست بردانة».
قالت ووجهها يتأجج تحت وطأة صراحته الهازئة. وغمرتها موجة من الكراهية.
«لماذا ترتعشين اذن؟ ومد اصابعه الفولاذية الى اصابعها يتفحص حرارتها. ان ثيابك غير مناسبة بالمرة».
«لقد احضرت سترة معي. وكانت الشمس حارة».
«اما الآن فهي ليست كذلك. واما بالنسبة الى هذا السترة فهي غير كافية على الاطلاق».
وقبل ان تستطيع الاعتراض خلع معطفه الكبير، ولفه حولها بحيث احاط بها معاً. فوجدت نفسها تلتصق بصدره الدافىء بحكم الضرورة.
احست سارة بما يشبه الحمى، وشعور غامر بالاثارة على الرغم منها. فأغمضت عينيها وقد قررت الا تدعه يحزر ما بها. وغزاها احساس عميق بالشوق نبع من حيث لا تدري، مخدراً وعيها حتى خالجها الخوف من ان

تتكلم او تتحرك.

مرت الدقائق ببطء ثم سأل هيو:

«هل تشعرين بتحسن؟».

كانت سارة تحلم. ولكنه عندما تكلم نظرت اليه بسرعة لتجد انه كان يحدق فيها بغرابة. فادارت رأسها بسرعة ماسكة انفاسها. وراح قلبها يضرب بشدة في السكينة. واحست بأن الحقيقة الوحيدة هي هذا الرجل الذي كان يرنو اليها بقلق مستتر.

«سألتك سؤالاً!».

«اسفة! طبعاً اشعر بتحسن. لا حاجة بي الى معطفك».

فارتفع احد حاجبيه بحركة ساخرة، ونظر اليها هازئاً:

«هذا مثال لنكران المرأة لجميل الرجل».

ورفع يده، فظنت سارة انه كان على وشك استرجاع معطفه. ولكن عوضاً عن ذلك امال رأسها الى الوراء بقوة، وازاح بأصابعه شعرها الثقيل عن عينيها غير عابىء بالعقد. ثم رفعه عن عنقها بمهارة متعمدة، سارحاً بنظراته فوق وجهها الرقيق، متمهلاً بعينيه فوق البقع المتسخة على خديها، وفوق اهدابها الذهبية الأطراف.

«هيو. . .».

سمعت سارة اسمه على شفتيها يتصاعد مع تنهيدة خفيفة، دون ان تشعر بأنها قد نطقت به. واعتراها شوق عارم. وبدأت تختلط في اعماقها مشاعر حلوة. ولكنه لم يتحرك من مكانه. وتابعت يده فقط التجول فوق وجهها، مسمرة اياها في مكانها، مثيرة عواطف في نفسها لم تكن تعرف بأنها تملكها.

«كنت تقولين. . .؟».

حثها على المتابعة برقة، بصوت خافت امتزج بالريح التي بدأت تهب:

«لا شيء. . .».

وداهمها الاضطراب، واطبقت جفنيها الثقيلين. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لحماية نفسها ضد مقدرته على قراءتها كالكتاب. وصبغت الحمرة وجنتيها. وخشيت ان يلمح لونها حتى في النور المتلاشي.

بعد لحظة صمت، تمهلت خلالها اصابعه بتردد على وجنتيها المحمرتين، كما خشيت، قال ببطء:

«ولقد بدأت تشعرين ثانية، يا سارة. وكنت قد قررت ان تعيشي في عالم مجدب لا مكان للعاطفة فيه مدة طويلة. ولكن هذا العالم قد بدأ يختفي الآن».

عادت سارة الى وعيها تحت تأثير لهجة هيو المتأججة. ولكنها لم تجرؤ على التحرك، وتصلب جسمها. كانت خائفة ان يحزر الكثير. فإن عالمها المجدب الخالي من العواطف قد تعرض لغزو هذا الرجل الذي هو ملك انسانة اخرى. هل يتوقع منها ان تشعر بالامتنان لأنه افلح في ايقاظ عواطف راح يراقبها بنوع من الموضوعية الطبية. واحست بالغضب المفاجىء يملأ عينيها بالدموع اللاذعة. وشعرت بدفئه يتسرب اليها، فاختلجت متشنجة.

ولكنها، حتى عندما حاولت ان تبعده عنها ثانية، احست بذراعيه تضيقان حولها، شادتين جسدها بحركة رقيقة. وفجأة رفع رأسه وكأنه قد احس بالخطر وراح يتفحص السماء.

«الغيوم! هتف وقد سرحت نظراته فوق راسها. ولاح يقظاً يتنسم الأجواء. انها ترتفع تحت تأثير الرياح الهابة. يحسن بنا ان نسرع».

وهب على قدميه جاراً سارة معه، مركزاً انتباهه على الجو. وبدا رأسه الداكن الصلف وكأنه قد عَكَسَ لون السماء والعتمة. واخذت الريح تهب عابثة بثيابها، مالئة الليل ضجيجاً، ممزقة الصمت المخيف الذي كان سائداً من قبل. وكان الضباب الآن قد ارتفع الى قمة الجبل بينما لاحت الأرض امامها واضحة. ولكنها عندما رفعت وجنتيها الحارتين الى الريح الباردة، احست برذاذ المطر وبنذير امطار ستهطل عما قريب.

«يحسن بنا ان نسرع».

رد هيو، وهو يتفرس في السماء ليستدير اليها خالعاً معطفه. ثم زرره حولها مسكتاً محاولاتها الضعيفة للاعتراض بنظرة حادة. والتقط الترمس بيد وامسك بذراعها بالاخرى. ولم يسمح للتعبير الصارم المرتسم على وجهه بأية معارضة اذ شدها بقوة لتجابهه.

«علينا ان نسير مسافة لا بأس بها. وقد تعود الغيوم فتتجمع في اية لحظة بسبب الجو المتقلب هذه الليلة. ولهذا اسرعي بالمشي. نعم. . . هذا حسن. قد لا يحالفنا الحظ مرة ثانية اذا ما تمهلنا».

ولاح وجهه عابساً متجهماً وهو يلقي نظرة سريعة على وجهها.

كان هيو على حق، كما ادركت سارة بعد برهة. اذ لم تمض عليهما نصف ساعة الا واحاطت بهما ثانية اسوار الضباب الرمادي وهما لا يزالان على بعد مئة متر تقريباً من الطريق. ودفعها امامه بقسوة، رافضاً ان يسمح لها بالتوقف حتى وصلا الى السيارتين. وادركت سارة لاهثة الانفاس، بأنه ما كان بوسعها ان تقوم بهذه الرحلة بمفردها. فقد بدا وكأنهما سارا عدة اميال، الا ان هذا لم يقترب بهما من هدفهما كثيراً.

«انا اعرف هذه المنطقة جيداً. عندما كنت صبياً تسلقت قمة بن مور».

بدت خطوط فمه مشدودة من التعب والتوتر. وقال لها وقد توقفت للحظة في العتمة، متأهبة، وكأنها على وشك الطيران:

«اريدك ان تعديني يا سارة، الا ترجعي الى هنا ثانية بمفردك».

فتحت سارة باب السيارة وهرعت الى داخلها محاولة ان تتخلص من النبرة الديكتاتورية الحازمة في صوته. وشعرت بأنه لم يكن يتوسل او يتظاهر بمشاركة وجدانية لم يحس بها. فكل ما يريده هو الا تتصرف بهذه الطريقة الحمقاء مرة اخرى.

راحت تبحث عن مفتاح المحرك على غير هدى.

«انت ديكتاتور».

قالت بغصة في حلقها، محاولة ان تتجنب النظر اليه. واعتراها نوع من الشعور بالذنب لانها وجدت ان جانباً من نفسها قد رفض ان يهادنه، ولو انها كانت شخصاً اخر لاندفعت بشعور من الواجب بالثناء عليه واغراقه بالشكر. وغمرت الثورة كيانها بأجمعه، ضد القدر الذي سمح لها بأن تقع في حب رجل لا تعني شيئاً بالنسبة اليه.

نظرت سارة الى وجه هيو. واحست باعصابها تنكمش خوفاً. كان هنالك شيء يشبه الغضب في عينيه. وكأن ملاحظتها المقتضبة قد جرحته. ولكنه ابتسم ابتسامته الساخرة المعهودة كما لو كان يبتسم لملاحظة ابدتها طفلة جريئة.

«كنت تقولين...؟».

حثها على الاسترسال بارادته الفولاذية، ويده على الباب المفتوح تمنعها من التحرك بالسيارة، وصوته مشحون بالتحدي.

«آسفة».

قالت سارة وهي تطلق ضحكة رنانة مقتضبة. وقد صممت على مجابهة الموقف. ان الانتهاء الى مثل هذه النغمة الناشزة لهو خير الف مرة من ان يخمن حقيقة مشاعرها. ولو انها تبعت جانب الحذر المطلق لاستطاعت ان تجنب نفسها مرحلة الاذلال النهائي. وأجبرت عيناها على مقابلة نظرته النافذة وقالت برعونة متعمدة:

«انني ممتنة لك جداً، كما سبق أن ذكرت لك. ولكن اذا كان التكرار يسعدك فانا اكرر شكري لك، يا سيد فريزر. واعدك بأنني سأسلك سلوكاً حسناً في المستقبل».

«مما يعني كل شيء، او لا شيء. اهنئك يا آنسة وينتون. انحني لاداء التحية للحضور!».

وصفق باب السيارة بصرخة نصف مكتومة. فقفزت تحت وطأة عنف احتقاره اذ حط بثقله على المقعد بعيداً عنها، واشار اليها بالتحرك قائلاً:

«كل ما اسأله منك هو ان تتجنبي طريقي في المستقبل».

ظنت سارة وهي تعبس متحيرة، ضاغطة على مكبس البنزين، بأنه من الغريب ان يقول رجل مثل هذه الكلمات لسكرتيرته.

بعد رجوعهما الى القلعة قالت جيل في صباح اليوم التالي:

«لا اعرف لماذا غضب هيو عندما اكتشف انني لم اكن هنا عندما رجعتما الليلة الماضية. لقد حاولت ان اشرح له انني كنت متيقنة بأنه سيجدك. ولكنه رفض الاصغاء الي. مما جعلني اقرر أنه انما اراد ان يثير ضجة كبيرة حول لا شيء. خصوصاً ان الشخص المعني لم يكن الا انت».

«لقد كان غاضباً بشأن موضوع اخر. موضوع خروجك مثلاً في ذلك الوقت المتأخر، كما اظن».

«ما احمق مثل هذا التصرف.. انا لم اعد طفلة».

«بغض النظر عن هذا، اذا توخينا الكلام بشكل عام، كان من المحتمل ان تتعرض حياة انسان او اثنين للخطر. ان اي شخص قد يتعرض للمتاعب. وكان من المفروض ان تقومي بطلب المساعدة اذا لم نعد».

دفعت جيل رأسها الى الوراء وقالت دون ان يبدو عليها التأثر:

«انك اسوأ من هيو. ما زلت اصر بانه لم يكن هناك داع للغضب الذي اظهره. كانت الساعة العاشرة تقريباً فقط. كما ان كاتي كانت تعرف اين

تجدني».

«يبدو ان كاتي تعرف الكثير. اعتقد انها عرفت بوجود كولن هنا قبل ان اعرف انا بزمن طويل».

هزت جيل كتفيها، ولكنها بدت خجلة بعض الشيء اذ قالت:

«لقد عرفت كاتي طوال حياتي، منذ ان بدأت اتذكر الناس والأشياء. ولهذا فانه من الطبيعي ان تخلص لي دون الاخرين. استطيع ان اعتمد عليها».

«حسناً. انت تعتمدين عليها. ولكن يجب عليك ان تتذكري بأنني لن استطيع ان افعل المحال. لا شك ان هيو سيجد الحقيقة يوماً ما. واذا ما اردت الصراحة، فإنني سأتنفس الصعداء عندما يفعل. ولو كنت مكانك لركزت كل جهودي على محاولة ايجاد تفسير جيد».

ألقت جيل عليها نظرة عابسة، ثم قفزت على قدميها وشعرها المجعد يتناثر:

«بحق السماء، لا تبدأي بالقاء المحاضرات علي ثانية. لقد سمعت منها ما يكفيني طوال حياتي. لماذا يعترض هيو على زواجي من كولن اذا كان هو قد اعتزم على الزواج من امرأة سيئة مثل بيث؟ ان احداً لا يهتم بي مطلقاً!».

داخل سارة شعور يشبه الغثيان. وراحت اذناها تطنان طنيناً مؤلماً. وسمعت نفسها تجيب بصوت واهن:

«ان بعض الاشخاص حاولوا ان يساعدوك...».

«كل شخص يختار طريقته! اجابت جيل بغموض، وخداها محمرتان من الغيظ. ولكن دعيني اقول لك بانني لا ابالي باكتشاف هيو للحقيقة. ثم انه قد يجد صدمة في انتظاره في وقت اقرب مما تتصورين».

والتفتت جيل لتتناول معطفاً صوفياً ازرق عن الكرسي الذي كانت تجلس فوقه في غرفة سارة، غير عابئة بالتعبير المرتسم على وجهها الشاحب.

«هل ستأتين، ام لا؟».

قالت جيل بصوت ما يزال فيه اثر للضجر، وهي تتحرك باتجاه الباب.

فتبعتها سارة كارهة بعد ان التقطت معطفها هي أيضا.

كانت جيل تعاني من احد امزجتها الطفولية الانتقامية. ولهذا لم تكن بالرفيقة الودودة هذا اليوم. وتمنت سارة لو انها رفضت اقتراحها بأن تذهبا معاً لتصففا شعرهما عند المزين. واحست بأن الوقت قد فات لتغيير رأيها

الآن من دون ان تثير شكوك جيل المغرمة بتوجيه الاسئلة المربكة، والتي تملك موهبة على انتزاع الأجوبة المهمة. وتنهدت سارة وهي تهبط السلالم وقد طاف بذهنها ان جيل تستطيع ان تتخذ من موهبتها مهنة.

قابلتا هيو في الردهة. وكانت سارة قد امضت الصباح كله في المكتبة، محاولة ان تنفذ بعناية سلسلة من التعليمات التي تركها لها مكتوبة بخط يده ووضعها بجانب الآلة الكاتبة. وباستثناء عدة دقائق اطل خلالها ليوقع بعض الرسائل الهامة، كانت هذه هي المرة الأولى التي استطاعت ان تتحدث فيها اليه هذا اليوم.

رفع هيو حاجبيه متسائلاً، وهو يقف جانباً من اجل ان يدعهما تمران. فترددت سارة، وتورد وجهها تحت وطأة نظراته الفاحصة.

«هل تتذكر يا سيد فريزر... بأنك سمحت لي بالذهاب لتصفيف شعري هذا العصر؟».

ووقفت غير واثقة، بينما سارعت جيل الى العبور خلال الباب المفتوح. فتمهلت نظراته على رأسها الذهبي بتعمد، وبدت ساخرة بعض الشيء.

«نعم. انني اتذكر الآن، يا آنسة وينتون. اظن ان بعض العناية بمظهرك مفيد لك بعد ليلة البارحة. على الرغم من ان شعرك يبدو لي جميلاً على الدوام».

اعترى سارة شعور احمق، لا تفسير له، بأن هيو كان يغازلها. ولولا الوميض الخفيف الساخر في قرارة عينيه لصدقت بأن خيالها لم يخترع هذه الفكرة.

ولكن كلماته الأخيرة التي تناهت اليها، مصقولة ملساء، اقنعتها بأنها كانت غبية لتسمح بمثل هذه الخواطر:

«ان المزين الذي ستذهبين اليه ماهر جداً. فبيث تبدو دائماً كنجمة سينمائية بعد ان تزور صالونه».

كانت جيل قد قادت السيارة وتوقفت بها امام المدخل. وراحت تنتظر سارة بصبر نافد، ضاغطة على بوق السيارة. وتحت وطأة هذا الصوت تحطم شلل سارة التي كانت تقف متجمدة في مكانها. فنظرت الى هيو نظرة شاخصة، ثم تمتمت تستأذن بالذهاب، مرددة عدة كلمات غير مفهومة. ودارت على عقبيها، ثم فرّت هاربة.

٩ - وغرّد طائر في القلب

عندما جلست سارة، بعد عدة ساعات من اليوم نفسه، تنتظر ايان ليأخذها الى الحفلة شعرت بيأس متفاقم. ولم تكن راغبة في الخروج مطلقاً. ولما وصل ايان اخيراً، لم يفلح الاعجاب الصريح الذي ارتسم في عينيه ان يخفف من كآبتها. كيف ستستطيع ان تتحمل الموقف فيما لو اعلن هيو خطبته لبيث، كما خمنت جيل بانه سيفعل. وطردت سارة الفكرة المؤلمة من ذهنها. وجلست في السيارة بجانب ايان.

كان هيو قد سبقهما بصحبة جيل وأحد الجيران. وبقيت سارة في غرفتها عن عمد حتى سمعتهما يغادران المنزل، وقد قررت الا تعطيه الفرصة لادراك حقيقة مشاعرها، او ابداء ملاحظة قد تطيح بالبقية الباقية من تمالكها لنفسها.

اخذت سارة نفساً عميقاً، واجبرت نفسها على التخلي عن التفكير بمشاكلها عندما تناهى اليها صوت ايان يعتذر بقلق بسبب تأخره.

«لا يهم. أنا اعرف كل ما يتعلق بهذه الأمور. فإن مرضاك يجب ان تكون لهم الأولوية بغض النظر عن كل ما يحدث».

«اظن ذلك. قال بابتسامة ملتوية. من حسن الحظ ان الحادث كان بسيطاً، على الرغم من انه جعلني اعطيه اهمية اكثر مما يستحق عند وقوعه. تعرفين ما اعني؟».

هزت سارة رأسها مبتسمة وهي تنظر اليه.

كانت المسافة الى بيت بيث، قرب خليج كارسينغ بعيدة قليلاً. ولكن سارة لم تهتم فقد وجدت في رفقة ايان صحبة طيبة. وهذا اعطاها الفرصة

لاستعادة توازنها. وكان نور النهار قد بدأ يتلاشى عندما وصلا الى البيت الكبير المربع المحاط بالاشجار. ولم يبد منعزلاً او كئيباً كلوخ غويل. ولاحت اراضيه، المحمية من تأثير الرياح، غنية بألوان زهور الرودودندرن وزهور الاسيجة التي كانت على وشك التفتح.

«انه مكان قديم وجميل».

«يبدو ان كل سكان الجزيرة هنا».

همس ايان بصوت خافت، وهو يأخذ ذراع سارة عند اسفل الدرج الخشبي الحلزوني الذي هبطته بعد ان وضعت شالها في الأعلى.

عند مدخل قاعة الرقص قدمها ايان الى السيدة اسكويث، والدة بيث الأرملة، والى السير دونالد ارفين، عم بيث من غلاسكو، الذي راح يساعد في الرسميات. واعتقدت سارة، وهي تصافح السيدة الصغيرة الحجم الغنية بمشاعر الأمومة، بأن بيث لا تشبه والدتها مطلقاً. اذ ان بيث لا تملك الا القليل من دفء والدتها وعذوبتها.

بعد قليل تحركا، وقدمها ايان الى عدد كبير من المدعوين. ولاحظت سارة وجود حشد كبير. وكان معظم الرجال يرتدون الملابس التقليدية للسهرة في مناطق الهايلاند، بينما معظم النساء يرتدين التنانير الشعبية الطويلة. وراحت فرقة موسيقية صغيرة تعزف فوق منصة مرتفعة قليلاً في قاعة الرقص. وبدا عليهم السرور واضحاً. وسرت عدوى هذا الجو المرح الى سارة، فوجدت نفسها بعد عدة دقائق ترقص الفالس بسعادة بين ذراعي ايان، وقد اخذت بعض مخاوفها السابقة تتلاشى.

وبينما كانا يرقصان شدها ايان اليه وهمس في اذنها، وعيناه على شعرها الذهبي المنساب في موجات راحت تتطاير متجاوبة مع خطوات رقصتها السريعة.

«انك جميلة يا سارة!».

ادركت سارة من النبرة العميقة في صوته، بأنه قد يسعى يوماً ما، كما كان قد لمح لها، الى نشدان ما هو ابعد من الصداقة. واحست انه من الأرحم ان تحاول ايجاد طريقة لتحذره موحية اليه بأن الصداقة هي كل ما تستطيع تقديمه له. ولكنها كانت شديدة الاستغراق في البحث بنظراتها عن هيو، من فوق كتفه، حتى انها بصعوبة سمعت ما كان يقوله لها. وضاعت

معظم كلماته في الفضاء فوق رأسها.

ولاح ان ايان قد حزر اخيراً بأن افكارها لم تكن معه، ولو لم يعرف اين كانت بالضبط، فقال:

«اذا كنت تبحثين عن اصحابنا من لوخ غويل فلا داعي لأن تقلقي. لا شك انهم هنا في مكان ما يتمتعون بالحفلة والرقص».

«في الحقيقة كنت افكر في جيل».

اجابت وهي تشعر ببعض الخجل من نفسها. لا لأن ما قالته كان بعيداً جداً عن الحقيقة بل لأن جيل ومشكلتها كانتا لا تفارقان ذهنها.

«واظن اني لمحتها قبل قليل، في لحظة دخولنا. قال ايان. وكانت ترقص. اعتقد انها في صحة جيدة الآن. فقد مضت مدة لا بأس بها على عمليتها».

ابتسمت سارة وهي تلتفت الى ايان ثانية. وراحت تنظر اليه بينما كان يقودها في الرقص. وتمنت لو تنسى هيو. فإن ايان هو الذي اصطحبها هذه الأمسية، ومن حقه عليها ان تبدو مرحة.

لم تر جيل في اي مكان. واملت سارة الا تكون ما تزال غاضبة من هيو.. من المؤسف انها لن تستطيع ان تسأل كولن ان يأتي معها؛ وهذه حقيقة يبدو سلوكها السابق في ضوئها غبياً. فلو انها كانت شجاعة، وحاولت ان تتكلم مع اخيها في الموضوع مرة ثانية، لكان في وسع كولن ان يأتي معها ويستمتع بالحفلة.

عزفت الاوركسترا النغمات الأخيرة من رقصة الفالس. وانساب ايان وسارة بين ذراعيه فوق ارض الصالة، وعيناه تتلألآن.

«سأحاول ان اجد بعض المرطبات قبل ان يتيقظ الآخرون للفكرة نفسها. قال مقهقهاً. ان المرء بحاجة الى ان يحتفظ بقواه من اجل مجابهة هذا النوع من الرقص».

فكرت سارة بأنه كان هناك عدد كبير من الناس. وراح ايان يحاول ان يشق طريقه بين الجموع بصعوبة بالغة.

«من اين اتوا جميعهم؟».

سألت سارة وقد افلحت في العثور على مكان هادىء، وعلى كأس من الشراب البارد.

«قد تعجبين! ان عدداً كبيراً منهم لم يكونوا بين المدعوين على الأكثر. وهذا لا يعني انه يمكن ان نعتبرهم متطفلين. فهم في العادة اصدقاء للاصدقاء اذا ادركت ما اعني».

«نعم، افهم».

اجابت سارة بهزة من رأسها. وظنت انه يمكن اعتبارها هي شخصياً من هذه الفئة، اذا ما توخى الانسان الدقة. وحدقت فيما حولها ترتشف شرابها. وراحت تستمع بتراخ الى ايان وهو يشير الى عدد من الاشخاص المرموقين الذين اتوا خصيصاً لحضور الحفلة. وكانت لم تر جيل بعد. وفجأة توترت اعصابها اذ رأت بيث ترقص بين ذراعي الرجل المعجب بها.

بدت بيث طويلة جذابة بشعرها الأسود ووجهها المطلي بأناقة. وكانت حركاتها رشيقة. ووقعت عيناها على سارة التي تراجعت مجفلة تحت وطأة النظرة العدائية الباردة التي ارتسمت في اعماقها. ولكنها اعتقدت بعد لحظة بأنها لا بد ان تكون قد اخطأت. الا ان بيث لم تبد وكأنها تفيض بمثل هذه السعادة التي لا بد ان تشعر بها فتاة على وشك ان تعلن خطوبتها.

ولكن ايان لم يتح لها الا وقتاً قصيراً للتأمل. وبعد العشاء كانت قد بدأت تشعر بمزيد من السرور والارتياح عندما ظهر هيو فجأة الى جانبها.

بدا انيقاً جداً وملفتاً للنظر، كما يمكن ان يبدو الرجل الطويل فقط في ثياب السهرة. وعلى الرغم من دوافعها الاخرى، فإنها لم تستطع ان تمنع نفسها من لذة تأمله بامعان، وكانت عيناه تلمعان كالفضة في وجهه الداكن الأسمر.

«هذه الرقصة لي، كما اظن».

وانساب بها بعيداً قبل ان يجد ايان الفرصة للاعتراض. وامسك بها بعيداً عنه قليلاً لكي يستطيع ان يرى وجهها.

«اخبريني هل تتأملين الناس دائماً بهذه الطريقة؟ من قمة الرأس الى اخمص القدمين؟».

«آسفة! هل اطلت التحديق؟ لقد كنت اتساءل اين كنت؟».

خرجت الكلمات الأخيرة من بين شفتي سارة قبل ان تستطيع ايقافها. فتوردت قليلاً. ولاح الاحمرار واضحاً تحت جلدها الأملس الشفاف.

«لقد كنت اتأمل بذلك باعجاب. في الحقيقة كانت جيل هي التي

اردت ان ارى».

«في هذه الحالة من الأفضل ان تتوقفي عن البحث. لا شك انها هنا في مكان ما. ولكن من المستحيل ان تجدي حزمة قش في هذه الزحمة فكيف بالقشة؟».

«كل ما اردته هو ان أتبادل معها بعض الكلمات».

«الا يمكن ان تستعيضي بي عنها؟. من فضلك لا تفسدي امسيتي بتوجيه مثل هذه النظرات المتعالية. انه شيء توصلت الى اتقانه تماماً، خصوصاً خلال الأيام الأخيرة».

وحدق في وجهها بامعان، وعيناه السوداوان تطفحان بالاسئلة اذ انحدرتا فوق رأسها المحني ورموشها الثقيلة. وكان ثوبها من الحرير «الجورجيت»، ابيض اللون، له كمان واسعان مضمومان عند الرسغين. وتكمله تنورة فضفاضة. وكان صدر الفستان ضيقاً التصق بجسدها، كاشفاً عن عنقها وكتفيها. وبدت سارة فيه جميلة جداً.

احست بحواسها تتخدر تحت وطأة نظراته العميقة. وشعرت بالضعف، فكادت تتعثر اذ وجدت نفسها تغرق في بحر من اليأس. وضاقت ذراعاه حولها للحظة، وشدها اليه. ولم يصغ الى الاعتذار القصير الذي تفوهت به ولا التفسير الذي صاحبه.

لزمت سارة الصمت مشيحة بوجهها. واخذ النبض يضرب بشدة في اسفل عنقها. وغامت عيناها. لم تشعر ابداً بمثل هذا الشعور من قبل. وكرهت هيو لانه كان السبب. شهق هيو نفساً مسموعاً وعيناه تتنقلان فوق وجهها:

«دعينا نخرج من هنا. كل هؤلاء الناس! لا اعرف من اين جمعتهم بيث».

«هذا من اجل غاية جيدة».

اعترضت سارة بوهن، وهي تشعر بهيو يقودها عبر باب جانبي بحزم. ثم عبرا ردهة مظلمة باتجاه خلفية المنزل. ولم تعرف اين كانا ذاهبين.

«اشك في ان يستطيع الكثيرون منا التحمل».

علق هيو بجفاء، وهو يفتح باباً خارجياً انتهيا منه الى الهواء النقي العليل.

وجدت سارة نفسها تمشي مسرعة عبر ممر الحديقة، ثم عبر قوس بني في جدار آجري قديم يقود الى خميلة من اشجار الصنوبر وبعض الاعشاب القصيرة المتشابكة بعد ذلك هبطا بعض الدرجات الحجرية غير المنتظمة، ووصلا الى كوة قرب ما بدا لسارة في الظلام بركة تكاد تغطيها الاعشاب النامية. وقرب البركة رأت مقعداً خشبياً قوياً صقله تعاقب المواسم والأجواء.

حدقت سارة بفضول الى زوايا الحديقة التي بدت واضحة في ضوء القمر. وكادت ان تنسى وجود هيو للحظة، حتى قال بهدوء:

«لن يجدنا احد هنا».

وتمهل. واخذت الرياح تخلف فوق وجهه ظلالاً كلما هبت خلال اغصان الاشجار القريبة. مما اعطاه منظر قرصان متغطرس متهور. واخذ قلب سارة، الذي كانت ضرباته قد هدأت نسبياً، ينبض من جديد بشدة عندما نظرت اليه. وشعت ابتسامته برقة عندما نظرت اليه كومضة بيضاء في العتمة. ولكنها دهشت عندما قال لها:

«كان اخو بيث صديقي. وكان معروفاً في عالم سباق السيارات. لن تستطيعي تذكره بالطبع، لقد قتل قبل عدة سنوات. وكانت هذه البقعة هي بقعته المفضلة، كما كان يدعوها. كنا نأتي الى هنا احياناً عندما كنا صغاراً للهرب والاختباء من بيث. لا احد يأتي الى هنا الآن، كما اعتقد».

«آسفة. انني افهم».

ووقفت امامه في ثوبها الأبيض الطويل.

«الا تؤمن بالاشباح؟».

«لا، فيما عدا الشبح المنتصب امامي الآن».

وكانت الابتسامة ما تزال ترف على شفتيه عندما لمس احد قرطيها الذي راح يهتز.

«وهو ليس بالتأكيد شبح بن الذي كان يتمتع بروح الفكاهة والمرح».

سمعت سارة وراءها صوت انسياب المياه الى البركة المهملة، تحت الاعشاب النامية. وكان الصوت الوحيد حولها عندما توقف هيو عن الكلام. وعلى الرغم من شعورها بعدم الارتياح، سارت بعيداً عن هيو الى حافة البركة، ونظرت الى اعماقها المظلمة. واحست بالدموع تلسع

عينيها.

«لقد بنى بن هذه البركة بنفسه. قال هيو مقترباً منها، ومتابعاً اتجاه نظراتها دون ان يلاحظ الدموع في عينيها. كان يحب العمل في الحدائق، مثل بناء الجدران وشق الدروب وغير ذلك. ولم استطع مطلقاً ان اعرف كيف كان يوفق بين ولعه بالحدائق وتعلقه برياضة سباق السيارات».

«ان حبه للحدائق ما كان ليقتله».

قالت سارة وقد اعتراها الخجل قليلاً للنبرة الجريئة في صوتها. ولكنها ما كانت ترغب في ان تدفع العواطف تتسرب الى نفسها ولو قليلاً. وبدت لها اللهجة العاطفية في صوت هيو سلاحاً آخر يوجه ضد تحصيناتها المضعضعة. اذا لم تتوخ جانب الحيطة فإن البقية الباقية قد تتداعى، مخلفة اياها تحت رحمته تماماً.

وفجأة تمنت سارة بيأس لو كانت اكبر سناً او اكثر خبرة. ان هيو يثيرها ويحيرها معاً. وهو يبدو قادراً على قراءة حالتها النفسية. واحياناً يبذل جهده لكي يروح عنها. ولكنها لا تعرف كيف تتعامل معه مطلقاً. لقد اعتاد ان يرمقها بطريقة توحي بالاستمتاع والتسلية. وهو يملك القدرة على اقتحام قلبها الاعزل بقسوة. وراحت اصابع سارة تبحث بلا وعي عن شيء تتمسك به، فلمست اوراق زهرة من زهرات الليلك الرقيقة. واستدارت بحركة آلية، ودفنت رأسها بين الزهيرات الباهتة المعطرة.

«سارة!».

جاءت ضحكة هيو رقيقة، هازئة قليلاً، ونفذت الى اعماق قلبها. ورفعها بين ذراعيه، وحملها الى المقعد. ثم وضعها هناك وجلس بجانبها. ولكنه احتفظ باحدى ذراعيه حولها.

سكنت بلا حراك، واعتراها ما يشبه الغيبوبة. ومد هيو يده الاخرى الى ذقنها. ورفع وجهها اليه مراقباً العرق الذي راح ينتفض في صدغها.

«انت تعرفين لماذا اردت ان نأتي الى هنا، اليس كذلك؟ لا من اجل ان اكلمك عن بيث او بن او جيل، بل لكي اعبر لك عن الحب، كما اردتني ان افعل عندما كنا فوق جبل بن مور البارحة. لقد شعرت بذلك».

ارتجفت سارة دون ان تستطيع السيطرة على رعشاتها وقد صدمتها هذه المفاتحة الصريحة.

«لا اريدك ان تشعر بأنك مدين لي بأي شيء».

قالت وهي تنتفض، وقد غمرتها المذلة، واشتعل وجهها خجلاً وهي تحاول ان تنتزع نفسها بعيداً عنه دون جدوى. كيف دفعتها الاقدار الى الوقوع في حب رجل بمثل هذه القسوة، رجل لا يتورع عن تعييرها بضعفها ورهافة حسها. ولكنها لم تستطع الافلات بهذه السهولة. فإن القسوة التي عرفتها فيه من قبل كانت لا تزال هنا، تسخر بها وتؤلمها.

لم يحاول ان يتظاهر الآن. ولم يكن في موقفه اي من التحفظ والسيطرة على النفس اللذين اظهرهما في الليلة الماضية.

احس هيو بارتجافها فرفع رأسها. ولكنها دفنته بسرعة في كتفه. فاجبرها على رفعه ثانية. ولاحظ اليأس المرتسم على وجهها واضطرابها الفائق. وتناهى اليها صوته يقول:

«غداً، يا سارة، يجب علينا انا وانت ان نتحدث. لعله ما كان يجب ان آتي بك الى هنا هذه الأمسية. ولكن هذا الشيء بيننا هو امر لا يستطيع الانسان ان يقاومه مدة طويلة».

وابرز ضوء القمر معالم وجهها الجميل الصافي، وبدا يافعاً اعزل، وقد استدارت عيناها تحت وطأة عنف مشاعرها.

«غداً!» قالت بصوت خافت، لا يكاد يسمع، وانفاسها تتصاعد مضطربة لافحة عنقه. انها لا تريد ان تفكر بالغد. لا توجد الا هذه الليلة وهذا الرجل. فالآن لم تعد تملك ذرة من الكبرياء. انها لا تريد الا ان يحبها هيو كما تحبه. الكلمات ليست كافية، غير مهمة.

«يا حبيبي...».

كان ما يزال قربها، ولكنه استعاد تمالكه لنفسه. وتصاعد صوته اكثر ثباتاً، وقد عادت اليه نبرته الفولاذية.

«لقد اتيت مع ماكنزي. ولهذا يجب ان اعيدك اليه قبل ان يشرع في البحث عنك. ستقولين له بأنك لا ترغبين في الخروج معه ثانية. ان غداً لهو يوم آخر».

هل كان يعتذر ام يتوسل الى مشاعرها الأسمى؟ ورمت برأسها الى الوراء بعنف والشكوك تدميها.

«وماذا بشأن بيث؟» لم تستطع ان تمنع نفسها من السؤال، وهي تحدق

فيه خلال الظلام. لا يوجد شيء بيني وبين ايان. ولكن انت وبيث. . .
قالت جيل بأنك قد تعلن خطبتك لها هذه الأمسية».

راح رأسها يدور وغزاها شعور حاد بالعذاب. انها على استعداد لأن تدفع اي ثمن مقابل استرجاع هذه الكلمات التي افلتت منها مندفعة رغماً عنها. ما كان يجب ان تذكر بيث. ولكن النزوة التي دفعتها الى الكلام كانت اقوى منها. شعرت سارة بجسد هيو يتصلب للحظة، ولكن ليس غضباً. ولم تستطع ان تتبين ملامحه لأنه كان يقف عكس القمر الذي كسته غمامة. ولم تلمح الا بريقاً خفيفاً في عينيه عندما قال برصانة.

«ان جيل تتحدث كثيراً، هذه كانت عادتها دائماً، وهي بارعة في الوصول الى النتائج الخاطئة. واستدار فجأة وامسك بوجهها بين يديه. لا تضيفي شيئاً اخر، يا سارة. سنعود الآن. وكما قلت لك قبل قليل، ان الغد لهو يوم اخر».

كانت الاوركسترا تعزف النغمات الاخيرة لاحدى الرقصات عندما دخلا قاعة الرقص. وصدمت حواس سارة الانوار المتلألئة وروح المرح السائدة في القاعة، وكأنها نغمات ناشزة. واحست بالثقل الجاثم على قلبها يتفاقم. ولم يساعد وجه هيو المجهد على تشتيت هذه المشاعر. وداخلها الشعور بأنها كانت تحلم هذه الساعة الأخيرة، وان شيئاً لم يحدث في الحقيقة.

ثم بدت الدقائق التالية وكأنها قد نجحت في تحويل الأمسية الى كابوس مخيف. فقد ظهرت جيل امامها فجأة وراحت ترقص باتجاهها بين ذراعي كولن. وذلك في اللحظة التي داهمتها فيها بيث مصممة غاضبة.

اعترى سارة ما يشبه الاغماء، شعور جديد مريع، وهي ترى بيث تضع ذراعها حول ذراع هيو وكأنها تملكه، مبتسمة له ابتسامة مضيئة.

«لقد بحثت عنك في كل مكان يا حبيبي. ذكر لي البعض بأنك كنت تتناول مشروباً، ولكنني لم اجدك. ثم سألت جيل عنك ولكنها كانت مشغولة جداً بالتمتع بصحبة صديقها الفنان من لندن، مما جعلها غير قادرة على الانتباه الى اي شخص اخر. انا اغفر لها بالطبع، فقد بدت غارقة في الحب».

ووقعت ضحكة بيث الرنانة كالصقيع على رأس سارة.

تبعت ذلك لحظة صمت. واخذ اللون يتسرب من خدي سارة، تاركاً اياها تبدو شاحبة وخائفة. ولم تضطر للنظر الى وجه هيو لترى العبوس يتجمع فوق وجهه وذلك عندما لوحت جيل لهم بجرأة، ثم اختفت هي وكولن في زحمة الموجودين.

تابعت بيث الابتسام، ممسكة بذراع هيو، وعيناها تدرسان مظهر سارة المشعث قليلاً بنظرة باردة حقود. وبدا واضحاً انها استخلصت نتائجها الخاصة ولم يعجبها ما رأت.

وادركت سارة ذلك عندما تمتمت بيث بسلاسة:

«لقد رأيتك وجيل تدخلان كوخ الفنان البارحة، يا سارة. ولكنني كنت مستعجلة جداً فلم اتوقف. كنت على وشك سؤال جيل ان تصطحبه معها اليوم، ولكن يا لحسن الحظ كانت من النباهة بحيث توقعت الدعوة».

كانت سارة تعرف بأن بعض النساء قادرات على التصرف بذكاء شيطاني عندما يتعرضن للاثارة. وكانت تعرف ايضاً بأن بيث كانت تعلم بوجود كولن وبعض الخلافات والمناقشات بشأنه. ومن المحتمل ان جيل قد سدت الثغرات في معلوماتها، الى حد الافضاء اليها بدور سارة في الموضوع. وكل ما تحتاجه بيث الآن هو تشويه بعض الحقائق، مستعملة المعلومات من اجل الوصول الى غرضها.

زحفت البرودة الى جلد سارة، ومعها شعور بالحتمية. فان الشيء الذي خشيته اكثر من غيره قد حدث اخيراً. ان هيو يعرف الآن دورها في محاولة خدعه. وبدا الاحتقار الذي يشعر به تجاهها واضحاً على وجهه. وتناهى اليها صوته يقول باقتضاب من خلال ضباب العذاب الذي اكتنفها:

«اسمحي لسارة ولي يا بيث بانهاء هذه الرقصة فقط».

قبل ان تستطيع سارة الاعتراض جرها بعيداً عن عيني بيث المشمئزتين الى حلقة الرقص. ولكنها لم تشعر بالامتنان له في قلبها. فلا شك ان الاستجواب سيبدأ الآن. بدأت التعاسة تتجمع في نفس سارة اذ اخذ خوفها يتفاقم. وتعثرت قدماها على الأرض المصقولة. فشدها هيو بسرعة الى الأعلى، محيطاً اياها بذراعيه الشديدتين وقال بصوت خافت قاس:

«حاولي على الأقل الا تفقدي قدميك وقد فقدت كرامتك».

«من فضلك، يا هيو».

همست وهي تحاول ان تسيطر على نفسها، ولكنه قاطعها بصوت متحجر:

«لا تقولي انك تملكين تفسيراً، وانك لا تعرفين عما كانت بيث تتحدث، لانني لا اريد ان اسمع تفسيراً».

حدقت سارة فيه بعينين وجلتين واسعتين، بميلة رأسها الى الوراء لكي ترى وجهه. لا شيء يمكن ان يكون اسوأ من هذه اللحظة، ان هيو انسان غريب! لا صلة له بالرجل الذي احتواها بين ذراعيه بحب عميق في الحديقة. وشملتها عيناه بنظرات كالسياط، وقد لاح النفور في كل خلجة من خلجات وجهه.

«من فضلك يا هيو. يجب ان تصغي الي، من اجل جيل على الأقل. الا نستطيع ان نذهب الى مكان ما لكي نتحدث؟».

رفض هيو توسلاتها على الفور، كما توقعت ان فعل.

«هذا المكان يصلح للكلام كأي مكان اخر. ولو انني وجدت نفسي معك بمفردنا لوقعت في خطر استعمال العنف الجسدي، او اتحت لك الفرصة ثانية لكي تتلاعبي بي كما تشائين. وهو شيء يبدو انك قد تمتعت به جداً في الماضي».

من ذا الذي قال بأن الكوابيس لا تستمر؟ هذا الكابوس يمكن ان يستمر العمر كله! وحاولت سارة تحت عنف صدمتها ان تنتزع نفسها بعيداً عنه ولكنه امسك بها كالكماشة، واحاطت اصابعه بخصرها الرقيق كالفولاذ.

ووجدت انها اذا ما ارادت ان تتجنب اثارة الانتباه، فمن الافضل لها ان تتبعه حيث يريد.

وبدا من غير المنطقي، انه على الرغم من تهكمه، كانت ما تزال تتأكلها الرغبة الملحة في ان تدعه يرى بأنها لم تتعمد ان تخدعه. وانها تصرفت كما فعلت مدفوعة بتيقنها من ان كولن براون قد تعرض للظلم في الحكم عليه.

ثم انه بوجود اخت كولن في الكوخ معهما طوال الوقت بدا من الحكمة اتاحة الفرصة لجيل وكولن لمعرفة حقيقة مشاعرهما دون التعرض للمعارضة وتأثيراتها السلبية.

«على الأقل، دعني اقول لك بانني شخصياً اعتقد بأن كولن براون هو

شاب جيد يمارس مهنة جيدة. وهو يرغب صادقاً، بالتعرف عليك».

«ما ألطف هذا! لا احد يستطيع الادعاء بأنك لم تزنيه وتقيميه جيداً. ولكن، بحق السماء، وفري علي التفصيلات».

«انني اكرهك!».

«الشعور متبادل».

قال منفجراً بلهجة يفعمها عنف مستكن. وومض بريق الخطر في عينيه وهو يستوعب شحوبها الشديد. لم يكن هنالك من مخبأ واحست بمصابيح الثريات المطلة من سقف الصالة المزين تلسع وجهها بنورها المتألق، ولاح هيو تجسيداً للقتل، القتل المجرد العاري.

«انا اعرف كل شيء عن عزيزنا السيد براون. هذا يعني: استطرد مصححاً. انني اعرف الآن. وبناء على معلوماتي اجدني اتفق معك في الرأي في انه لا غبار عليه. ولكن ليس هذا هو الموضوع المطروح. وانت تعرفين ذلك. فلقد تعمدت ان تخدعيني، وانا لا اهتم مطلقاً بالاسباب المخففة. لأنني طلبت منك ان تفعلي شيئاً ووافقت. ولكنك لجأت من وراء ظهري الى العمل ضدي طوال الوقت».

قابلت عينا سارة الكبيرتان المحملقتان عينيه بتوسل بينما راح الألم والاستياء يصطرعان في نفسها.

«انني لا ارى الأمر كما تراه، يا هيو. لقد ظننت بأنني كنت اتصرف من اجل خير الجميع. ثم انني قد وضعت كل مشاعري الخاصة بشأن دوري في الموضوع في المكان الثاني، لأن اهتمامي الرئيسي كان منصباً على مصلحة جيل».

«ما ألطف هذه الخطبة الصغيرة، يا سارة. هل كنت تتوقعين التصفيق والثناء؟ بدلا من ان تكثري من الاحتجاج، لماذا لا تعترفين بأنك كنت قد قررت ان تتصرفي كما تشائين منذ البداية؟ مثل طفل افسده التدليل. حسناً، انني ارى الآن والفضل هو لبيث. وانا اعرف تماماً حقيقة معدنك».

«كيف تجرؤ . . . ؟».

واندفعت الدماء الحارة الى خديها. وتحولت الى عاصفة من الغضب. وانتهت الرقصة بمرافقة لحن صاخب من الاوركسترا. فتوقفا يحدقان كل

منهما في وجه الأخر، غير عابئين بالناس حولهما. وتصلب ظهر سارة من شدة الغضب الذي خنق دموعها في مهدها. ورمت برأسها الى الوراء متحدية.

«الا تظن، بأنه قد يكون هناك تفسير مختلف؟ لقد اكتشفت بأنك كنت مخطئاً فيما يتعلق بكولن براون، ولكن لم تفكر بأن تأتي لتصارح من يعنيهم الأمر بحقيقة ما اكتشفت. كيف استطاعت مثل هذه المعلومات ان تنزلق من ذاكرتك العجيبة! ولو انك فعلت، لكنت انا وجيل لك من الشاكرين».

ثم استدارت، اذ لم تعد تملك السيطرة على كلماتها، ودون ان تنتظر اي جواب جرت مبتعدة. ولم تكن من المغرمات بالخناق، وقد لاحظت انها وهيو قد اخذا يجذبان انتباه الموجودين. وسارعت سارة لمغادرة قاعة الرقص. وتنفست الصعداء عندما عثرت على ايان في طريقها.

كان يمشي في الردهة، وبدا واضحاً انه كان يبحث عنها. وشعرت بوخزة من الشعور بالذنب عندما اشرق وجهه فرحاً برؤيتها. هل هي في حقيقتها انسانة مخادعة، كما تشعر الآن؟ ربما. ولكنها وجدت من الصعوبة ان تسيطر على العواطف التي كانت تعتمل في نفسها.

«من فضلك يا ايان. عندي صداع عنيف. هل تتفضل بايصالي الى البيت؟».

عبس ايان وهو يحدق في وجهها بامعان، بعينين قلقتين، وقد تيقظت حاسته الطبية.

«لم تتعرضي لحادث او لشيء من هذا القبيل يا سارة؟».

«لا في الحقيقة... الا اذا كان باستطاعتي ان اصف نقاشاً حاداً مع رئيسي بالحادث. ان الرقص يوشك على التوقف يا ايان. آمل الا يزعجك ان نغادر الآن».

«طبعاً لا. في الحقيقة كنت على وشك ان اسألك شخصياً بأن تدعينا نذهب الآن. فبعد نصف ساعة سيبدأ صف طويل من السيارات بالتجمع لمسافة ميل تقريباً، مما سيجعلنا غير قادرين على التحرك. اذا استطعت العثور على معطفك فستجديني في السيارة خارج البوابة».

كانت سارة ما تزال تشعر ببعض الخجل عندما فكرت بايان بعد عدة

ساعات. ولم تدرك الا بعد ان اوصلها وتركها، بانه لم يقل الا القليل، وكأنه قد خمن الاتجاه الحقيقي لعواطفها. وساق بها الى لوخ غويل بدون ان يبدي ولو ملاحظة واحدة غير لطيفة، على الرغم من انها شعرت بانه كان يود لو يعرف موضوع الخلاف مع هيو. لا شك انه سيعرف في القريب العاجل... بعد ان تكون قد ذهبت.

كان رأسها ما يزال يؤلمها، على الرغم من الحبوب التي اصر ايان بأن تأخذها. ولكنها حاولت ان تتجاهل صداعها، وقفزت من فراشها. لقد نجحت في الحصول على قسط من النوم على الأقل، مع انه كان نوماً متقطعاً مضطرباً.

كان الذي ايقظ سارة هو صوت السيارة في الساحة امام القلعة. وتذكرت بأن هيو كان قد رتب الخروج لقضاء هذا اليوم مع جون فينلي. مما سيدفعه لمغادرة القلعة باكراً. من الواضح انه لن يدع خلافاً مع سكرتيرته يفسد متعته.

وصلت الى النافذة في اللحظة التي اختفى فيها هيو. ولم تلمح منه الا رأسه الداكن قبل ان يسوق بعيداً. ولما استدارت بسرعة وقعت عيناها على فستان حفلة الليلة الماضية ملقى على الأرض. ففي الساعات الأولى من هذا الصباح، عندما نزعته، لم تبال بما يحدث له. فاتجهت بسرعة الى خزانة الثياب، وفتحت بابها. ثم انزلت حقيبتها ووضعت فيها ثيابها.

يجب ان تترك لوخ غويل في الحال. لن يكون بامكانها ان تبقى وتواجه هيو مرة ثانية، ليس بعدما حدث ليلة البارحة. فلا شك ان احتقاره لها سيكون واضحاً الى الحد الذي يثير الارتباك بينهما. هذا فيما عدا مشكلة حبها له الذي لن تستطيع ان تخفيه. ثم ان عملها هنا قد انتهى تقريباً. ولن يجد هيو صعوبة في اتمامه بنفسه. او ربما تتبرع بيث بتقديم كل المساعدة التي تحتاجها.

انتهت سارة من حزم ملابسها وسارعت لوضع خططها. ستتكلم بالهاتف لتطلب سيارة اجرة من سالن. ثم تأخذ المركب من كريغنيور. ولم تكن تعرف موعد مغادرته للجزيرة، ولكن سائق سيارة الأجرة سيخبرها لأن سكان الجزيرة يعرفون مثل هذه الأشياء في العادة. ومن اوبان ستأخذ القطار الى غلاسكو، ثم الى لندن. واذا حالفها الحظ فستصل الى منزلها في

المساء.

بعد ساعتين كانت تجلس على الرصيف في كريغنيور. كان الوقت الحادية عشرة فقط. وقال لها سائق سيارة الأجرة بأن المركب سيصل قبل الساعة الثانية عشرة، ولهذا لن تنتظر طويلاً.

كان اهل البيت في لوخ غويل ما يزالون في الفراش عندما غادرت. وكانت قد كتبت رسالة صغيرة لهيو تركتها له في المكتبة. وقالت لبيدي باقتضاب بانها قد استدعيت للعودة الى لندن في الحال. ولم تكن واثقة فيما اذا كانت بيدي قد صدقتها ام لا. ولكنها وعدت بأن تخبر الاخرين عندما يهبطون من غرفهم. لا شك في ان هيو سيفكر في عذر مناسب عندما يعود.

اما الآن فقد جلست على صندوق مقلوب لتخزين السمك، كما فعلت عندما قدمت قبل عدة اسابيع. ولكن بدلاً من ان تنظر باتجاه البر راحت تنظر نحو البحر، لأنها هذه المرة كانت تنتظر المركب وليس رجلاً ذا لسان حاد وعينين اكثر حدة، رجلاً كتب عليها ان تحبه.

كان الصباح جميلاً، رطباً ومنعشاً، ولا غيوم الا ما تجمع منها فوق الافق. فاغلقت سارة عينيها بتصميم ضد سحر المنظر. عندما تذهب بعيداً عن الجزيرة ستشعر بالتحسن دون شك. ولكنها الآن يجب ان تحتفظ بذهنها جامداً كأبي الهول. يجب الا تفكر.

وفجأة فتحت عينيها المغرورقتين بالدموع، وقلبها يخفق بشدة. وشعرت بالضعف يسري في قدميها. فقد حادت سيارة اللاندروفر عن الطريق الشمالي، وسارعت باتجاه الرصيف ثم توقفت قربه بضغطة شديدة على الفرامل. وقفز منها رجل طويل داكن الشعر...

اه، لا. وقفزت يد سارة الى عنقها. ليس للمرة الثانية، ودون ان تعير انتباهاً لوهن رجليها، سارعت للوقوف متعثرة فوق قدميها، غير مصدقة ما رأته عيناها.

ولكن هيو لم يتوقف للسؤال هذه المرة. ودون ان يتكلم او ينظر اليها كما يجب، التقط متاعها بقسوته المعهودة، والقى به كيفما كان في مؤخرة السيارة،

«واين تظنين انك ذاهبة؟»

قال اخيراً، وهو يحيد بالسيارة عن الرصيف.

لاحظت انه كان في منتهى الغضب، ولكن لم يكن هنالك ما تستطيع ان تفعله لأن صوتها بدا وكأن اصابه الشلل. واخيراً استطاعت ان تقول بصوت ضعيف:

«هل وجدت الرسالة التي تركتها لك؟».

«نعم. قال بعنف وهو يغير السرعة قرب المنعطف. لقد استلمتها. ورأيت جيل ايضاً. ولكن هذا ليس هو المهم. ان جيل لا تملك ذرة من التعقل. ولكنني توقعت منك ان تكوني اكثر حكمة».

لم يفت سارة تهكمه الشديد. فاستدارت بسرعة لتنظر من النافذة. والدموع توشك ان تقفز من عينيها.

«لقد ظننت بأنك كنت ذاهباً لقضاء اليوم بطوله بصحبة صديقتك».

اطبق هيو فكيه بشدة وقال بايجاز:

«ولهذا قررت ان تهربي وتذهبي الى جين في لندن».

تبعت ذلك لحظة صمت طويلة. وشعرت سارة بالعرق يكسو كفيها، فكورت اصابعها حولها بشدة. وتابعت اللاندروفر طريقها. وضاق الشارع. وفجأة قاد هيو السيارة الى طريق فرعي وتوقف. فوجدت سارة نفسها في مكان تحيط به اشجار الصنوبر، المكان نفسه الذي توقفا فيه في السابق، في اول يوم لها على الجزيرة.

اوقف هيو المحرك، واستدار اليها على الفور، ولاحظ تعبيرها الوجل.

«الآن. قال بحدة وبدون شفقة. سنتكلم انا وانت».

«حسناً، افعل ما تشاء اذا كنت تظن بأن هذا سيشكل فرقاً ما».

اجبرت نفسها على القول بلا اكتراث.

وانطلقت يده الى كتفها، وامسك به ضاغطاً، موجعاً اياها عن قصد.

«اصغي الي».

ولمعت عيناه بسخرية. ودفعت نبرة صوته بالدماء الحارة الى وجنتيها وظل يحدق في عينيها حتى لم تعد تحتمل نظراته، فاطبقت جفنيها، وهمست:

«لقد قلت بأنك رأيت جيل».

«نعم. قال باقتضاب. وقد فسرت الكثير، كل ما لجأت اليه كي تجبرك على الموافقة على خططها من اجل ان تخفي صديقها. لا يسعدني ان اقول

بأنه قد ثار بها الغضب عندما ذكرت لها بانه لم يكن هناك داع لهذا».
فسارعت سارة الى القول عندما توقف لحظة متأملاً:
«لقد ذكرت شيئاً عن كولن في الحفلة، شيئاً عن كونه مناسباً».
وضع هيو اصبعه تحت ذقنها، واجبرها على النظر اليه.
«لقد قبض رجال الشرطة على كولن براون عندما قاموا بمهاجمة ناد كبير من اجل ضبط المخدرات. لا اظن ان جيل قد فكرت باطلاعك على هذه الحقيقة!».
ولما هزت سارة رأسها بجفلة، استمر قائلاً:
«لقد اطلق سراحه لحسن الحظ اذ ثبتت براءته. ولكن قبل ان يحدث هذا استلمت والدة جيل أخباراً سيئة من اميركا. قبل ان تتزوج من والدي كان قد مضى على ترملها خمس سنوات. ولو ان المعلومات التي استلمتها كانت صحيحة، لكان معنى هذا بأن زوجها الأول ما زال على قيد الحياة، مما يعني بدوره من الناحية الفنية بأن زواجها من والدي لم يكن قانونياً. كل هذا حدث بعد موت والدي بقليل مما جعل المرأة المسكينة تكاد تفقد عقلها. ولكن ما لبث ان تبينت بأنه كان هنالك خطأ في الموضوع ناشىء عن عدم اكتشاف هوية الميت الحقيقية. بالاختصار، كانت قد فقدت زوجها الأول في حادث طائرة في المكسيك. ووقعت اوراقه بين يدي شخص اخر. وبعد كل هذه المدة يشاء سوء الحظ ان يلقى هذا الرجل ايضاً حتفه في حادث فتقع اوراق زوجها في ايدي الشرطة وتكون هي الاوراق الوحيدة التي امكنهم التعرف من خلالها على هويته. ولهذا اتصلوا بها في لندن».
حاولت سارة مستاءة ان تجد تعليلاً.
«اما كان بالامكان ان تذهب جيل معها... او أنت؟».
«لقد رفضت ان تصغي لمثل هذا الاقتراح. ان اختها في بلتيمور معها الآن بالطبع ولكنها لم تشأ ان تعرف جيل شيئاً عن الموضوع، خصوصاً الآن، بعد ان زالت الحاجة».
«ولهذا فقد طلبت منك ان تعتني بجيل وتراقبها اثناء غيابها. وما كدت اصل الى هنا حتى امرتني بالتعاون معك».
بدا فمه الساخر حنوناً:

«تذكري يا سارة بانني لم اكن معتاداً على الأمور والمشاكل العائلية. لعلني قد تصرفت بمبالغة، باذلاً الجهد لبناء خط دفاعي ثقيل ضد عينين زرقاوين جميلتين».
حاولت سارة ان تحتفظ بشيء من حضور الذهن من اجل ان تتجاهل ضربات قلبها.
«مساء البارحة، ذكرت بأن كولن شخص لا بأس به. ولكنك لم تشر الى هذه الحقيقة من قبل».
كشر هيو لاوياً وجهه وقال:
««لانني لم اعتقد بأن هذا كان ضرورياً. لقد ظننت ان جيل نسيته. او لعلك تستطيعين ان تعللي السبب بحالتي النفسية».
«ولكن متى اكتشفت الحقيقة؟».
ألحت سارة.
«عندما ذهبت الى لندن، وقابلت جيمس كار. كان قد تعهد بأن يبحث لي عن الحقيقة. وقد قابلت ايضاً جين مارلي، وتكلمنا معاً».
أضاف وقد رقت عيناه.
عبث النسيم المتسرب من نافذة السيارة بشعر سارة. ولكنها رفضت بأن تدفع ذهنها يشرد.
«ليلة البارحة كنت غاضباً جداً».
«طبعاً يا حبيبتي. وجاء صوته مرحاً مفعماً بالسخرية. يجب ان تتذكري بانني لم اكن اعرف أن السيد براون كان على ظهر الجزيرة. ناهيك عن كونه يقطن هنا في كوخ استاجره. وعندما تبرعت بيث بالهمس بالمعلومات في اذني احمرت الدنيا في عيني. ولم يكن وجود كولن هنا هو الذي هزني، بل علمك بوجوده».
حدقت سارة فيه بعينين واسعتين تحف بهما الظلال. ثم تحركت شفتاها الرقيقتان وقالت بندم:
«آسفة، يا هيو. ارجو ان تصدقني».
«يا حبيبتي. قال ضاماً اياها بشدة. انا هو الذي يجب ان يعتذر، لا انت. كل ما استطيع ان اقوله هو ان الحب يجعل الانسان حساساً واعمى. لقد اردت ليلة البارحة ان اتوسل اليك لكي تتزوجيني. والله وحده يعلم

بانني لم ادع شيئاً يقف في طريقي من قبل. ولم يحل بيني وبين سؤالك الا مزيج غريب من الاسباب المتصلة بين وايان ماكنزي. لقد اردت ان يكون المكان مناسباً والجو مناسباً لانني لم اسأل فتاة من قبلك ان تتزوجني. وانا في العادة لا ادع مجالاً لحقد بيث وحبها للانتقام ان يؤثرا علي».

«وانت لا تحبها اذن؟».

انحنى هيو وقال:

وليس هنالك شيء البتة بين بيث وبيني، يا حبيبتي. كل ما في الأمر انها تظن انها تميل الي اكثر من غيري من الرجال».

ابتسمت سارة بعذوبة، ولكنها لم تناقش. اذ ان بيث اسكويث لم تعد مهمة على الاطلاق.

وضمها اليه مرة ثانية.

واحبك. قال بصوت سريع خافت. وكان نواح الريح هو الصوت الوحيد للحظة، حتى رفع راسه وتمعن في وجهها المحمر الرقيق. احبك يا حبيبتي. ردد بانفعال. ولكن هل انت على استعداد للزواج مني والعيش هنا في لوخ غويل؟ انني انوي ان ادير املاكي هنا بنفسي. واراقب اعمالي في لندن من لوخ غويل».

رفعت سارة الى هيو عينين تتالق فيهما النجوم، وحدقت فيه وفمها يرتعش تحت وطأة العواطف العارمة التي جاشت فيها.

«سارعاك يا سارة. قال واعداً. ساحاول ان اعوضك عن كل شيء».

تناهى الى سارة تغريد طائر، وكان الهواء عابقاً بروائح الصيف في الجزيرة. وسمعت في صوت هيو حناناً لم تستطع ان تنكره.

«يا حبيبي. ردت بصوت يكاد لا يكون مسموعاً. انني احبك الى الدرجة التي لا يهمني فيها اين اعيش. ولكن لوخ غويل مكان مثالي، لوخ غويل وانا وانت».

لقد جاءت الى هذه الجزيرة قبل مدة قصيرة بقلب مجروح حزين. اما الآن فقد راح قلبها يخفق متناغماً مع خفقات قلب الرجل الذي كان يضمها بحنان. ولم يعد قلبها يرجع الا اصوات البحر، وفاضت به الموسيقى.